ذاكرة الوشم

رواية

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

باديس فوغالي

ذاكرة الوشم

رواية

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2009.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-777-7
الإيداع القانوني : 1503-2009

1

من هنا دلف الأسد يابني، لقد مرق من دغل التوت، مرقد العفاريت والأشباح، ذاك الذي تراه عند أقدام الصخرة، لم يكن يوما سعيدا على أهالي الدشرة ..كانت عشية بائسة، كئيبة، ملونة بالهلع والدم ..

قدم فتية «الدوار» وفى أيديهم فؤوس تآكل معدنها من كثرة الاستعمال، وشبه أسلحة من مخلفات الحرب الكونية الثانية، حتى البنادق العتيقة كانت غير مهيأة للرمي، لنفاذ الطين إلى ماسوراتها، أصل البنادق ممنوعة في ذلك الوقت ياولدي، والقطع التي كانت في حوزة قلة من الفلاحين، التي حرص أصحابها أن تكون بعيدة عن أنظار رجال الحاكم، لم تكن مجدية لتلك المجابهة.

أنتشر الفزع والرعب في نفوس الفلاحين في موسم قلع الحمص، وتعال صراخ بائس، تدفق من الحناجر المتعبة، شمل فضاء «الدشرة»، صراخ فيه أنين وزعيق.

في لمح البصر التقطت النساء أطفالهن، وهرعن إلى داخل البيوت المبنية من الطوب والحجارة... تمكنت أصوات الإنذار من إشعار جميع الأهالى بالخطر المحدق بهم.

أوصدت الأبواب، ومكث الأطفال والنساء يلتقطون الأنباء من خلال مفارج الحيطان، ومنافذ الهواء، وتمتمات تتسرب من بين شفاههم اليابسة بالدعاء لتجاوز هذه المحنة التي ألمت بدشرتهم على حين غرة.

جدك أول من اندفع بجرأة نادرة صوب مكمن الأسد، ولما حاصره الرجال بعصيهم وصراخهم عاد إلى قلب الدغل.

تجمع الرجال في المرج السابح في الخضرة يصارعون الخوف والتردد، ويترقبون المصير المحتوم المحدق بهم من جراء هذا الوحش الذي ظهر فجأة بعد أن اطمأنوا إلى رحيله ذات ليلة من الليالي القمرية، أقدامهم غائرة فى الأرض المشبعة بالماء، وحناجرهم توزع موجات الخطر إلى الأكواخ الكابية عند خاصرة الجبل، وعلى امتداد الوهاد المكللة بتيجان الصخور الطينية، وشجيرات التوت والدردار..تبادلوا الإشارات.

جدك بفضل مشاركته في الحرب عن طريق التجنيد الإجباري كان صاحب المبادرة في تلك الواقعة...أنصت الرجال إليه بحرص واهتمام، ثم التفوا بالدغل بعدما تسلحوا بالحذر، كانوا موزعين في شكل حزام نصف دائري،

بحيث لا تتجاوز المسافة بين الرجل والرجل المترين، وشرعوا في تنفيذ الخطة التي اقترحها جدك..

دنوا من الدغل بخطوات ثقيلة، وعيون جاحظة، والخوف ينخر مفاصلهم ويثقل خطواتهم .

إصرارهم على التخلص من هذه البلوى بدا عظيما، لم يجرب جدك صلاحية البندقية، رأى بحكمته وذكائه أن يلجأ إلى حيلة..تسلق شجرة تين معمرة كانت إحدى مشكلات الدغل الذي جعله الوحش عرينا له، وراح من فوق أغصانها المورقة والمتشابكة يتطلع إلى الداخل من ثنايا فروع التوت والقندول المتماسكة، وفيما نظره يمسح أعماق الدغل، لمح الأسد وقد انكمش في زاوية من زواياها العميقة، وعيناه المتوهجتان تبرقان بالشرر والتوقد، لم يبال به جدك، لم يطلب من الرجال التقدم أكثر من الدغل، أو اللجوء إلى أساليب أخرى للمواجهة.

كان بإمكانه أن يأمر بإضرام النار في الدغل، والاكتفاء بمراقبة الوضع من بعيد، كما لم يطلب المساعدة من الرجال الذين كانوا بعيدين عن العرين ينتظرون منه الإشارة والأوامر، كان يقدر في قرارة نفسه أهمية ماكان مقدما عليه، لكونه أحد أقطاب الدشرة و«سلاك الواحلين» كما يطيب للأهالي تسميته، لم تمر مشكلة للعرسان الجدد وهم يقتحمون بيت الزوجية في ليلة الدخلة، إلا وهو صاحب الشأن والفضل في إيقاظ فحولتهم، لذا آثر أن يهاجم الوحش وحده...

سدد بندقيته صوب أعماق الدغل من خلل الفروع والأوراق المتشابكة، وتحسس بأصبعه الزناد..ثم رأى أن يغير الموقع للتحكم أكثر في الوضع ورؤية الوحش رؤية واضحة وكاملة، كان يريد أن يقضي عليه بطلقة واحدة لأنه يعلم إن أصاب الوحش بجرح، ولم يقض عليه فستحصل الكارثة.

لقد قدر كل هذا، لذا فضل المجابهة عن قرب... وفيما كان يحاول تسوية وضعية التسديد تشرخ الغصن، فزلقت البندقية من بين يديه، وفقد توازنه، ليسقط بكامل جسده إلى أعماق الدغل... سرعان ما ارتطم بقاعدة الدغل المكسوة بالقش، تمادى إثرها إلى مسمعنا هدير امتزج بصراخ ممزق ملأ الأرجاء تخريقا تبعه ندب وعويل.

قال أحد الذين كانوا قريبين منه أنه سمع زعيقا أعقبه فتق، ودشدشة، ثم همهمة تلاشت بعد حين.

ولكثرة الأسئلة المتزاحمة في عقله شعر بالعسر لأن مخيلته ممتلئة، خصوصا عندما تمثل تلك الشهادات عن جده الأكبر، وما نسجته الذاكرة الشعبية، حول طلوعه في الليالي المقمرة، واختفائه لمجرد أفول نور القمر...

التفت إلى جدته الجاثية بجانبه، كانت أشبه بكومة من الصوف تنتظر يدا ماهرة تحركها، إنها لاتتحدث كثيرا، ولأنه حفيدها الأصغر الذي جاء ليزورها هذه الصائفة بعد سنوات

من الغياب، والانقطاع بسبب مشاغل والده الكثيرة، أبت إلا أن تحكي له بسخاء ماعلق بذاكرتها عن جده.

ولسبب ما عادت إليها الحيوية، والنشاط، فاسترسلت في الحكي، كان بصرها معلقا بالآفاق، ونظراتها لاتزيغ، مثبتة في نقطة واحدة عند منتهى رؤية الأشياء، فخيل إليه أنها تحولت إلى سحر خاص يثير في جوانحه تداعيات الحيرة، والدهشة ليشمل ما ترمم في عالمه من ملامح وظلال، كان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى مع تباشير الغسق، وانزلاق قمم الجبال في لوحة طبيعية بديعة التكوين..

تأمل سحنتها.. هاهي بصمات التاريخ ماثلة في التجاعيد التي ارتسمت فى مساحة بشرتها، وعلى الرغم من إشرافها على القرن والثلاثة عقود فإن مآقيها الغائرة مازالت تحتفظ ببريق خاص، وشيء من الوداعة.

كان منظرها المهيب يئد في حلقه لجج السؤال، ويرحل به في رحاب الزمن.. مرت لحظات صمت قاسية وثقيلة، وفجأة تدفقت فيها الحركة، وقد توكأت على ساعده إيذانا منها بمغادرة التلة، وجد حينها الفرصة مواتية، وهمس في أذنها بحذر، واحتراس، ترى ماكان مصير الأسد ياجدتي؟

رنت إليه بنظرة ذابلة، لكنها مليئة بالإصرار، فقالت وفيض الكلام يتدفق من بين شفتيها اليابستين :

– اجتاحت المنطقة سحابة من غبار كثيف لم تعرف الدشرة سابقة مثلها، قدمت من الجنوب، تجمعت حتى صارت كثيفة

ونزلت في شكل حلزوني على الأكمة التي كان يختبئ فيها الأسد، زمجرت بعنف وثم صعدت وهي تدور دورانا شديدا إلى عنان الفضاء، وثمة زئير رهيب يحاول عبثا تخريق حلزونياتها الشديدة اللف، والدوران..رحلت بعيدا إلى ما وراء الجبال..

أومأ لها بحسن الإنصات، وكان وجومها بعد سرد الخبر، وما تدفق فيه من فواجع الماضي علامة على بتر خيط الكلام.

استعانت في وقوفها بكتفه، ومضيا يبتلعهما الدرب الصغير ناحية الديار، وكل همسة من همسات الطبيعة، كل لمسة من اللمسات فيها، كل ما يرى، وكل مالا يرى غدا أمامه رقعة من الخطوط، والأشكال تساوت في تهيآته لوحة تجريدية المعالم نقلته إلى عوالم البخور والتمائم، وسكبت في أعماقه إكسير التسليم.. وساد بينهما الصمت حتى صارا لايسمعان غير وقع أقدامهما وهي ترتطم بحصيات التربة الجافة ودشاش الطوب.

صار الوقت مهيأ لأن يلحم أجزاء من صورة جده الموزعة في مساحة ذاكرته..لقد كان فارع الطول، قوي البنية، إلى الحد الذي مكنه من كبح جموح مهر شارد..كان المهر يركض بأقصى سرعة، ليداري ألم اللدغة التي وسمته بها الأفعى من أعلى الهضبة الملفعة بنبات الديس والشيح، وسيقان

العوسج، وهو ينفلت كالسهم في اتجاه المنحدر المشرف على فراغ يفضي إلى أعماق الوادي.

جده كان منفردا بعزلته في ذلك العلو الشاهق يسبح قدرة الخالق من خلال تقاسيم السهول والمنحدرات، والهضاب الشاهدة كالنسور على عظمة وقدسية «بني كريم»، ولما اقتحم ذهوله وقع حوافر المهر الطائشة إلى مسمعه وثب بخفة عجيبة، وانتصب في طريقه فاتحا ذراعيه إلى منتهاهما موجها صدره ترسا للاندفاع، ولبث دون حراك، بيد أن المهر لم يقلل من سرعته، وأقبل عليه بصلابة قوائمه غير مكترث، ولا متردد.. عندما انعدمت المسافة بينهما، أوكادت، آثر المهر أن يقفز فوق هامته، ولولا يقظته، وذكائه في التعامل مع الخيول الشاردة لكان حتفه بين صخور الوادي، بدل الأكمة التى يتبارك بها قاطنو الدوار.. ارتمى تحته ومد ساعديه الفولاذيين إلى ساقه، تململ على شفة الهوة، واستسلم لرقاد طويل، حمله جدك على كتفيه العريضين فاتحا المجال لقوائمه المكتنزة لتتدلى على دفتيه و هو يمسكها بشدة بقبضتيه إلى صدره، وقدم به نحو البيدر، طرحه فوق كومة تبن، وراح يتفحص بإمعان موضع الإصابة، أخرج من جيب سرواله الحوكي مدية حادة، تشبه شفرة الحلاقة، وبضع الجرح المتورم الأزرق، ثم أفرغ صدره من الهواء، نظر إلى السماء، فأطال النظر، ثم تحول إلى الجرح، عصره فاض فاه عن سائل دموي يميل إلى الزرقة

مع اصفرار، كان السائل ثخينا، قطر بصعوبة، وظل يشد بمنديله العريض في مكان الإصابة حتى اطمأن تماما إلى نفاد الهواء من رئتيه، قبل الجرح قبلة عميقة، امتص بها بقايا السم، ثم ثفل لعابا لزجا، واذعن إلى غثيان شديد، تقيأ إثره ما ترسب في معدته من عسل النحل البري، وتين الفطور، بعدها تمدد جثة هامدة بلا حراك، إلا من نفس واه بالكاد يطلع ويهبط من صدره.

رآه جماعة من الرجال كانوا يصنعون آخر اللمسات لعريش من القش بهدف المراقبة والترصد، تركوا ما بأيديهم وهرعوا إليه، حملوه على سواعدهم إلى حوش الدار، هناك غرغر له كأس من الزيت، ورش بقليل من الماء البارد، فصحا من إغفاءته، وأول مانطق به لسانه به، سؤاله عن حالة المهر..

المهر ضمد جرحه وعاد كسابق عهده إلى المرعى، أما جده فقد ظل طريح الفراش يومين بليلتيهما صائما عن الأكل إلا من معالق صغيرة كانت تقدم له من مسحوق نباتات عديدة مخلوطة بعسل النحل البري، وماء الزنجبيل، ..أسترد نشاطه بعد ذلك، وعاد إلى أشغاله اليومية، وأعماله التي لاتنقطع.

2

مازال يذكر أسماء كثيرة لأطفال عرفهم في سنوات الستينيات، بعد الاستقلال، كانوا يمرحون بكل ما لديهم من براءة، وخفة بين هذه الوهاد، كان الكبار يلقبونهم بالعفاريت، لأنهم لم يكونوا يعرفون السكينة، والثبات، يتحركون باستمرار، وكانوا لايعرفون المشي، مشيهم جري، وسكونهم حركات وثرثرة ونكات، كان يحصل هذا أثناء تسلقهم الهضبة، أو عودتهم منها ... والشاطر منهم من كان يدرك الهدف قبل أقرانه، ولا يذكر أن أحدهم أدرك الهدف مرة، لقد كان الرعاة الأطفال العمالقة يصدونهم عن تكملة قوانين اللعبة بحجة أنهم يشوشون على القطعان، التي كانت تعشق هذه التلة الخالدة في الاخضرار صيفا وشتاء، وقليل منهم من كان يصمد، لكن بعيدا عن الهدف المحدد.

كانوا فقراء معدمين ينحدرون من أسر تمارس الفلاحة بإمكانات بسيطة بالكاد يوفر محصولها السنوي ما تقتاته

خلال العام، وليس فيهم من لم يفقد عضوا من أسرته في ثورة التحرير المباركة، ومع ذلك كانوا متآلفين متحابين، يقنعون بالقليل...

في ذلك الوقت كانوا لايعرفون السروال الفرنسي، وكل ما كان يستر عوراتهم ثمة قطعة، أو قطعتين من الكتان المخيطة جببا لأجسامهم الصغيرة النحيلة، توكل مهمة خياطتها إلى خياط السوق الأسبوعي للقرية بدون أخذ مقاسات..

كانوا يسمعون كلاما عن القرية، كلاما أكبر من عقولهم الصغيرة، يقولون أن بها بنايات ذات طوابق، تحف طرقاتها أشجار مورقة وجميلة، بيوتها مسقفة بالقرميد، أو الإسمنت، لاتشبه بيوت دشرتهم، حيطانها ليست من الطين والحجارة، ولاهي ترابية الطلاء، وفوق كل هذا، بها ما كان يثير فضولهم، ويجعلهم متمسكين أكثر بالسماع مشدوهين إلى راع يفوقهم سنا صاحب والده يوما إلى سوق القرية الأسبوعي لمساعدته على حمل أكياس القمح إلى المطحنة، وكان مرابيا بلا شك، لا يسرد كل ما رأى وسمع في القرية حتى يأتي وهو يقايضهم على آخر ما يملكون من قطع الحلوى، حصصهم الممنوحة كل أسبوع، ويظلون معتصمين به، حتى إذا ما اطمأن إلى خلو جيوبهم يصدر بسمة كاذبة صفراء، ثم يطلق ساقيه إلى الريح، فيعدون وراءه، يطوقونه حتى يستسلم لمشيئتهم حينها تتحول جوارحهم إلى آذان

صاغية، تصيخ السمع، فتلتقط الخبر الذي يهزهم هزات عنيفة عدة مرات، وفي مناسبات كثيرة.. نساء لاتشبه نساء الترعة عندهم وهن ذاهبات، أوعائدات، محملات بجرار الماء، لقد كن جميلات، شهيات، ونظيفات، لهن شعر عار مسدول كالستائر، أو بضفائر، تقطعن شوارع القرية في غنج ودلال، بخطوات وئيدة تحملن أرداف ممتلئة، وأفخاذ مكورة، كانوا يستوعبون المشهد، يتمثلونه حق التمثل ثم يتوزعون إلى زوايا مختلفة ليعودوا إلى الائتلاف من جديد.

3

عاد اليوم إلى دشرته التي كاد ينساها، جاء ليحضر حفل زفاف «مخلوف» أحد الذين كانوا يعشقون نساء القرية، وكلهم كانوا يعشقون بنات القرية، يتخيل الواحد منهم إحداهن، يشكلها بخياله، ووجدانه وبغريزته الصبيانية، يصيرها امرأة ملهمة كاملة الأوصاف وحسنة التقاسيم، تنفث الفتنة من حولها حين تسيح بها الحاجات في أزقة وشوارع القرية .

جلب له هدية، ودس فيها صورة لأجمل النساء العارضات في ذلك الوقت، اقتطعها من مجلة أجنبية تهتم بعالم الموضة...

أما السبب الثاني الذي عاد من أجله إلى دشرته، سماعه بحضور شيخ من عاصر جده وعرفه عن كثب. بحث عنه، حتى أعياه البحث، وكاد ينسى أمره بسبب المهام التي أسندت إليه في تلك الليلة، وفيما كان الشبان أقران العريس ينتظرون ما تسفر عليه ليلة الدخلة، وهي عادة

موروثة في أوساط الشبان في ذلك الوقت، العريس لا يكون رجلا فحلا بأتم معنى الكلمة حتى يقضي وطره من عروسه بسرعة وفعالية، ثم تنطلق الزغاريد ويتدفق الفتيان إلى ساحة كبيرة تحت طلقات البارود يرقصون ويتفننون في الرقص كل بطريقته الخاصة، وفيما كان يحث شحوب النور المنبعث من كومة الحطب الملتهبة وضعت في مكان بعيدا عن الباحة مع زمرة من أصدقاء العريس، حتى لمح ذلك الشيخ وسط حلقة من حلقات المعزومين، وقد واتته الفرصة والمسامرة على مفاتحة الشيخ ليسرد عليه ما يجهله عن جده.

كان المدعوون أصنافا كثيرة من رجال الريف، فيهم الملاك الذين آلت إليهم الأرض بعد تأميمها وتوزيعها على الفلاحين الصغار، ومنهم الأقارب الذين غادروا الدشرة أثناء الحرب، أو بعد الاستقلال، ومنهم بعض عابري السبيل، أو الوافدين من مناطق مختلفة من الدواوير والمداشر المجاورة، تحلقوا حول قصع الطعام المكللة بقطع كبيرة من لحم الضأن، يثرثرون حول الغلة، والصعوبات التي كانت عائقا في تحصيل محصول هذا العام، بسبب تذبذب الظروف المناخية وإجحاف السماء، وقلة الإمكانات المسخرة للفلاحة، لكنهم، فيما يبدو كانوا راضين سعداء بما أنتجته الأرض هذا العام، وصاروا أشد تفاؤلا لرحيل الجراد الذي هدد محاصيلهم السنة الماضية، فيما كانت الأيدي

المعرورقة تتسابق إلى قطع اللحم المتوجة لجفن الطعام، كان منشغلا بفحص الوجوه القمحية، مستعينا بالنور الشاحب المنبعث من مجمرات شبعت بالحطب الجاف، وعيدان الدفلى المفرقعة، موقعة طقطقات تثير الشهية، وتفتح النفس على الأنس والكلام..

بمساعدة أحدهم اقتعد قطعة طوب بجانب الشيخ، وراح يصغي إليه باهتمام بالغ، كان حديثه يدور حول ذلك الزمن الغابر، عندما كان جده لايتوانى في الاستجابة، وتلبية الطلب متى طلبه أهل أحد المربوطين - كما كانوا يقولون - يلبي الطلب بدون كلل ولا تأفف، كان يضحي بوقته ويقطع المسافات الطويلة ليلا، أو نهارا، ركوبا أو مشيا على الأقدام، لا يعبأ بمخاطر الطريق، ولا بصعوبة المسالك وطول المسافة، لا يتردد في ذلك مهما كلفه الأمر، كان يفعل ذلك وكأنه يقوم بمهمة نبيلة أمر بها لإزالة الهم عن الذين يطلبونه، ثم عرج بحديثه عن جده إلى خصاله الكريمة، بعد أن أطلع تنهيدة أخرى، وأخرج قرن ثور، من جيب عباءته الداخلية، أستلمه في راحة يده اليسرى، ضرب على جوانبه عدة ضربات بأصابع يده اليمنى، ثم نزع عنه الغطاء، وأدلج أصبعين من أصابعه إلى أعماق القرن، سوى بين أنامل أصابعه كمية صغيرة من «الشمة»، ثم استنشقها، وقد ازداد حيوية وامتلأ نشاطا وراح يقول :

– إن الزمن لا يخلق الرجال دائما يا بني..الكبار، كبار، أصدقكم القول، قالها وهو يشير إليه بكل جوارحه، لو لم تر عيناي هاتان اللتان بدأ يخبو منهما النور لكذبت.. كان جدك يا ولدي يعمل في مزرعة المعمر«لوجا » معمر إيطالي جشع، وخسيس، فقد كان – لعنة الله عليه – يستغل جدك استغلالا فاحشا، ولم يقف عند هذا الحد بل طلب منه مرارا وتكرارا، وبأساليب وطرق خبيثة وملتوية أن يشبع نهم زوجته الجنسي، كانت زوجته «ماريا » شبقية لاتصبر على الفتيان، وكان جدك فتى قوي البنية، فارع القامة، مفتول العضلات، ولأنها صبية غجرية تصغره بعقدين من الزمن، كان لايمانع في أن تضاجع غيره مادامت رغبتها فيه، وكانت الخبيثة الماكرة تعشق جدك عشقا جعلها لاتفكر بشيء غير إخضاعه والاستسلام إلى إشباع نزوتها الشيطانية الساخنة.. وأمام امتناع جدك عن ارتكاب الحرام، ظل زوجها ابن اللئيمة يختلق الأسباب، ليدبر له الانفراد بها، ..تظاهر يوما بأن له عمل إداري في المدينة، وضروري أن يتأخر أكثر من يوم، فأوصاه بزوجته والمزرعة حتى يعود، ألح عليه أن يبيت في بيته بحجة أن زوجته تخاف الأشباح، ولا تطيق قضاء الليل في غرفة بمفردها، تمت الخطة كما أراد.

امرأة «لوجا » يا بني، كانت آية في الحسن والجمال، أوتيت بهاء لم أر مثله في حياتي... تعمدت ترك باب مخدعها

مفتوحا، واجتهدت لترتيب الخطة بعناية دقيقة، ومدروسة.. في عمق الدجى، والسكون الذي شمل المزرعة، وما جاورها إلا من شعاع ضوء مصباح منبعث من العمود الكهربائي الوحيد الذي سخر للوجا دون سائر الدوار، والمداشر..

في هذه الأجواء الساكنة والهدوء المطبق أصدرت ماريا صراخا، انطلق من حبالها الصوتية كالنار، كانت الصرخة كفيلة بطرد الكرى عن جفني «سي الطيب» كما كان يسميه أهالي الدشرة، فهب مذعورا من فراش القش الذي اتخذه مضجعا في زاوية من زوايا الإسطبل صوب مصدر الصوت، فقد آثر أن لا يبيت بالمكان الذي هيأته له ماريا، كان مرتاعا، وخائفا من أن يكون مكروه قد حصل لزوجة «لوجا»، أدلف إلى غرفة نومها، اسمها الحقيقي جاكلين، لكن زوجها يفضل تسميتها ماريا، تنحدر من أصول إيطالية، وهي في الأصل غجرية، التقطها «لوجا» قبل المجيء إلى الجزائر في إطار إيفاد فرنسيين من أصول مختلفة لتعمير المناطق الفلاحية في الجزائر، عن طريق تمليكهم الأراضي الخصبة، وإمدادهم بما يستلزم الفلاحة من آليات ووسائل، بقوة القانون الذي يمنحهم امتيازات هائلة على حساب السكان الأصليين أصحاب الأراضي..

حين وقف على عتبة غرفة نومها، رآها مستلقية على فراش ناعم ينطق بالترف، وكان لايستر جسدها البض غير قميص شفاف، سمح لمعالمه الفاتنة البروز بصورة

إغرائية تثير الغرائز.. أشارت إلى دبلة ساقها المدملجة، وقد انحسر القميص الشفاف عن أجزاء كبيرة من فخذها الممتلئ المكور، فغدا تحت ظلال نور المصباح قطعة من العاج تشبره بقع حمراء متناسقة الألون، لما أحست به يدنو منها، تأوهت وهي تشير إلى موضع في ساقها، قريبا من فخدها المكتنز، ولما اقترب أكثر، تعمدت حسر قميصها إلى حدود الفتنة الكبرى، فبدا جسمها الصارخ بالأنوثة والإغراء أكثر تأهبا، فاستحى «سي الطيب» أمام هذا المشهد الكارثي الذي لم يحصل أن وقع أسيرا لإغرائه، وكاد الشيطان أن يوقع به، فتسمرت قدماه وشعر بالرجفة الكبرى تداخله، وتشل حركاته، غير أنه قاوم، فاستجمع كامل إرادته ووعيه، استغرق ذلك وسعا زمنيا لا يدري كم كان قدره، حتى ظنت ابنة الماكرة أنها نالت مرادها، وأوقعته في مصيدتها، لكنه فاق وصحا من غفوته وظل يقاوم هذا الإغراء بصلابة، وقوة.. حين عاد إليه عقله، جمع أنفاسه، و صرخ في وجه «ماريا» موشحا وجهه عن الفتنة الماثلة في حضرته :

استري جسدك يا امرأة.

رنت إليه بنظرات ذابلة يغنجها الاستسلام والبوح، وقد أعياها الشبق وفاض على مجامع جسدها المتهالك تحت الشهوة القاتلة، وبصوت رقيق ناعم تهشمه الرغبة الجامحة

انفلتت كلماتها من بين شفتيها الملتهبتين، وهي تشير إلى دبلة ساقها :

– ساقي، ساقي، أحسه يموت، ما أثقله، آه، لا أستطيع تحريكه ..

فأجابها وهو يصارع الجاذبية المنبعثة من أنفاسها الحرى وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه من فرط ما أصابه من ذهول، وفتنة كادت تقضي على اتزانه، .. سأطلب لك الطبيب حالا، إن حالتك لا تستوجب الانتظار، سأرحل الساعة إلى «الكومين»، وقام يتأهب للخروج، فتشبثت بسترته، وهي ترجوه أن لايتركها وحدها، ولما لاحظت عليه سرق النظر من حين إلى حين إلى تلك المفاتن الموزعة على مساحة ناظريه، قالت له في شيء من العتاب واللوم :

– لم أكن أعلم أنك قصير النظر إلى هذه الدرجة، هل يعقل أن تتركني في هذه البهيمة وحدى، أين الأمانة التي أوصاك بها سيدك خيرا، أنسيت...؟

ثم أردفت قائلة في حين أذعن هو إلى الصمت :

إن شفائي بين يديك، أنت طبيبي، ولا طبيب لحالتي غيرك، ألست «سلاك الواحلين»، هيا سلكني من محنتي.. تعالى يامسكن الأوجاع، سكن أوجاعي، يا مهدئ الروع، وكاشف الغم، أكشف غمي، فقد هيأت لك، هيا، أدنو مني.. فهذا الفراش الوثير هيئ خصيصا لفحولتك، لاتتردد، إني

أسمع أنفاسك تعلو، وتهبط، إنك أكثر مني تحترق فلم هذا الخجل؟

إن سيدك غائب، وقد صار عاجزا من أن يطفىء نار شبقي، هيا اقترب مني وسأعصرك، سأجعلك تذوب كالشمع بين أحضاني، وسأجعل منك وقاف هذه المزرعة، بل ستكون سيدي في الفراش.. إني أتعذب..

وتبخرت توسلاتها في ثنايا الغرفة الأنيقة الجميلة، وقد أجمع أنفاسه وراح يخاطبها كالواثق من نفسه :

- لست أنا الذي يرتكب الفاحشة، ويغدر حتى ولو كان المغدور «لوجا» نفسه، ...

وعندما يئست من استدراجه إلى فراشها، انتصبت عملاقة في وسط البيت، وغرزت أظافرها في كتفيه، فتركها وانصرف إلى الزريبة تاركا إياها تئن كنمرة مسعورة تفاقمت أوجاعها.

لم يفعل ذلك الفعل البشع يا أبنائي، كان وسيما جذابا كالقمر، عازبا لم يسبق له الزواج، خوفه من الله هو الذي منعه من ارتكاب الفاحشة..

في تلك الآونة انطلقت زغاريد النسوة من أحد البيوت الطينية، تبعتها طلقات بنادق، توقف الشيخ عن سرد الحكاية، وقال بنبرة المغادر :

- يبدو أن العريس قد حفظ ماء وجه أبيه، وقام من توه يطلب الانصراف، يقوده فتى من فتيان الدشرة إلى كوخه الرابض خلف الجبل بينما استسلم الجميع إلى نوم عميق.

4

انطوت الليلة الماضية بسويعاتها الهاربة، فضل فيها ثلة من الشباب اليافع التلذذ بأويقاتها في غزل مغامراتهم الدائمة مع الذئبة الخبيثة الماكرة، الساكنة بمغارة عميقة القرار في صلب جبل الدشرة الهائل، حيث اتخذت لنفسها وجرائها وكرا بين صخرتين ناتئتين، مشرفتين على خواء يلتقي بهوة سحيقة، تشاركها الموطن أفعى رقطاء، نالت شهرة واسعة وسط فئة الرعاة، وطالبي العسل البري، يعرفون هذه الذئبة الخبيثة، ويعرفون حيلها ودهاءها، وكيف احتالت مع جرائها، العديد من المرات على مغافلتهم، وفي كل مرة تنقض على خروف، أو حمل وديع شرد عن القطيع.. المطاردة مستمرة، الذئبة بحيلها ومكرها، والفتيان بعنادهم، وإصرارهم، ..

الكل في تلك الليلة ينسج شطارته في مطاردة الذئبة بطريقته الخاصة، قصد إظهار مهارته، وحرصه الشديد على حماية قطيعه والتفاخر أمام أقرانه.

أما الكهول، والمسنون، فقد استسلموا لنعاس هادئ، بعد أن اطمأنوا على شرف العروس، وهاهم، مع انبلاج الفجر على البطاح الغافية للناحية، يستقبلون الصباح الجديد بحيوية ونشاط.. فركوا أعينهم، وصبحوا بعضهم بعضا، وهبوا من توهم مترافقين زمرا، زمرا، باتجاه ينبوع الكرمة الأجاج، توضأوا بالتناوب، ثم تقدمهم شيخ الكتاب يؤمهم للصلاة.. بينما راح الفتيان وقد انهكهم السمر يغطون في نوم عميق...

و ماهي إلا ساعة أو بضع ساعة، حتى انبلج الضوء على البطاح المترامية الأطراف، فتصايحت الديكة إيذانا بطلوع الفجر، انتشر النور، فهب النائمون عن آخرهم، وقد غمرهم نور النهار الدافق، وظهرت الشمس من وراء التلال، تتسلق الأفق في أبهة ودلال.

دبت حركة غير عادية داخل البيوت والأحواش، اختلط فيها بكاء الأطفال بوعيد النساء، إزاء صغارهم الذين برحوا مراقدهم وتعلقوا بذيول أثواب أمهاتهم صارخين، ومتصارخين.

اشتدت الحركة، هذه تنهي، تلك تبعد ابنها المتشبث بجبتها، فكثر الأمر، والتوبيخ، وألوان العتاب، .. اختلطت أصوات الصبية، وزجر أمهاتهم بطقطقة أواني الخشب والفخار، فأضحت الغرف المتقابلة والمتجاورة معملا حقيقيا لخلايا نحل في ذروة الانتعاش..

وماهو إلا وقت قصير حتى صاح الفتيان، بأن أخرجوا القطعان، فتدفقت النعاج والماعز، يتقدمها كبش أقرن، صوب مخرج الحوش، وتوزعوا حول زريبة البقر والخيول التي كانت خارج الحوش منفردة في بطحة سهلة بجوار البيوت، ليست بعيدة عنها كثيرا.. فامتلأ الفضاء بالثغاء والخوار، والنباح، وتلاحمت القطعان الصادرة من الأكواخ المجاورة، وسارت الكلاب السارحة أمامها، والرعاة خلفها سالكين الدرب الوحيد المطل على آفاق الحقول والمساحات البور المترامية الأطراف.

5

لم يعد يفصل سعيد أصغر إخوة مخلوف سوى أيام قلائل، ويلتحق بالجامعة، بعد أن أمضى سنوات دراسته الأولى في كنف عمه الذي يقطن في القرية، ولقد توفر له من الحظ ما لم يتوفر لسائر أترابه من أطفال دشرة بني كريم..

أتيحت له كل الظروف، والأسباب المساعدة لمزاولة دراسة ناجحة، توجت هذه السنة بالحصول على شهادة الباكالوريا شعبة الآداب والعلوم الإنسانية.. احتضنه عمه فور فطامه، وتكفل برعايته وتربيته محيطا إياه بشتى أنواع الرعاية والاهتمام، مما ضمن له حياة كريمة مطعمة بخلق حسن.

صادف نجاحه هذا العام قران أخيه الأكبر، فتوحدت الفرحة وتقاطع الابتهاج بهاتين المناسبتين البارزتين في العائلة.

كانت التلال المكتحلة برؤوس نبات القندول، وأعناق العرعار، والشيح تتمايس متماسكة، يشكل تلامسها حزاما من النبات البري، يتماوج بين التلال والمنحدرات في سياق منسجم على إيقاع النسمات المداعبة للناحية،

تهب من حين إلى حين، فيتيقظ الإحساس بالانتعاش، والانشراح، وعند أقدام هذه التلال تنام نباتات الدفلى نوم العرائس في أحلى أيامهن العسلية.

هتف أحد الفتية من على ربوة مقابلة للسهل الذي اختاره سعيد مرعى لشياه أخيه، كان صوت الهاتف قويا رعديدا، يفد كثيفا هائجا، ثم سرعان ما تنثره النتوءات الطينية الرابضة في أسفل السهل، وبحاسته الغريزية الحذرة، تمكن سعيد من لملمة شتات الصوت، واستيعاب مضمونه، إنه صراخ تحذير، ومن ثم عليه إبعاد القطيع من غابات الدفلى، وجمعه في السهل الفسيح حتى يكون على مرأى منه، انطلق نحو المنحدر، والكلب يعدو بين خطواته يسبقه بنباح متواصل، وماهي إلا لحظات حتى تجمع القطيع في السهل، وغدا تحت رؤيته.

شرعت الشمس تقترب من كبد السماء، وترسل سياطها اللاهبة إلى الأجسام، إيذانا للإياب، والتفيؤ بظلال أشجار التين الكابية عند مشارف الدشرة.

في حدود الواحدة زوالا حزم أمتعته، وودع أبويه، وإخوته على عجل حتى لا يفوتهما قطار الرابعة، كان يمتطي حصانا أشهب، أما هو ومخلوف ففضلا السير، كي يتحدثان بحرية أكبر عن أسرار الحياة الزوجية ومتعتها.

عند مدخل القرية، وفي باحة واسعة خصصت للبغال، والأحمرة ودعا مخلوف وانصرفا إلى المحطة.

لقد شعر بألفة عجيبة تربطه بسعيد، فعلى الرغم من هدوئه الدائم، كان يفكره باستمرار بطفولة أخيه مخلوف، الممزقة في جنبات الدشرة، أين قضيا سنوات صباهما القاسية، أيام الحرب وسنتين بعد الاستقلال، لذا صار يشعر بفرحة كبيرة وهو يسعى معه صباح مساء متنقلا بين مكاتب الجامعة والحي الجامعي لترتيب واستتمام إجراءات التسجيل، والحصول على الحقوق التي يحصل عليها عادة الطالب الجديد عند التحاقه أول مرة بمقاعد الدراسة في الجامعة، وكان يشعر في قرارة نفسه أنه يقدم خدمة جليلة لدشرتهم المنسية وأبناء دشرتهم المكدودين، والمحرومين من أبسط الحقوق التي ينعم بها سكان المدن والحواضر، ولم يفارقه صباح مساء حتى ضمن له الإقامة الدائمة بالحي الجامعي، حينها صار لا يختلف إليه إلا في أوقات متباعدة من الشهر، أو في المناسبات الخاصة حين يؤثر البقاء في المدينة للمذاكرة استغلالا للوقت.

6

أدركت الحافلة مدخل إقامة زواغي سليمان عند الأصيل، فتدفق الطلبة جماعات ووحدانا، يتوزعون في كل اتجاه قاصدين غرفهم، .. تشابك ثلاثتهم في السر نجيا، حتى توغلوا في أعماق الحي، استأذن «شرحبيل» شاب فلسطيني، طويل القامة، نحيف العود، يحمل في جوانحه هم القضية، ولا هم له سواها، لا يتكلم كثيرا، قليل الضحك، لكنه كان مولعا بملاحقة الحسان، وقد وجد في فترة الإضراب التي ثارت أحداثها مع بداية الموسم الجامعي الجديد، فرصة للاختلاف إلى أبناء وطنه، لطرق موضوعات لها صلة بالنضال والكفاح المشروع من أجل القضية الفلسطينية، وكثيرا ماكان موضوع الحديث يدور حول سياسة التهجير، والإبعاد التي تشنها الدولة الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني، واستبدالهم باليهود الوافدين من كل أنحاء العالم في مستوطنات أقيمت خصيصا لهم...

بينما قصد «سعيد» مصلى الحي الذي عرف توسعا، وصار مسجدا يؤمه الطلبة لصلاة الجمعة، و حضور الندوة الأسبوعية، باعتباره عضوا فعالا في مكتب الطلبة الجناح المحافظ، وهو كغيره يهمه إصلاح الجامعة، ومستقبل السياسة التعليمية المنادي بضرورة جعلها تساير ثوابت الأمة.

في حين تابع «سليم عقون» طريقه وحيدا نحو الغرفة، كانت الغرفة تقع في الطابق الثاني، نظيفة نصف مؤثثة، بها ثلاثة أسرة، عند رأس كل سرير صوان صغير من المعدن، يتوسط الغرفة مكتب خشبي مشترك، كان في الأصل خاص بطالب واحد، لما عرفت الجامعة إقبالا متزايدا من الطلبة جعلت الغرفة لثلاثة طلبة، نظرا لضيق مساحتها، لم يشأ مسؤولو الحي تزويدها بعدد كاف من المكاتب، لهذه الغرفة شرفة تطل على الحي السكني...

غير سليم ملابسه، ثم استلقى على سريره يدخن، امتص الأنفاس الأولى بشراهة، وتلذذ بعد ما سوى مخدته تحت قفاه، سرح دخانا كثيفا في أرجاء الغرفة، سرعان ما تحولت لديه عملية التدخين إلى تسلية وجد فيها ترويحا عن البال، فراح يجذب النفس تلو النفس، متأملا الدخان المتصاعد إلى السقف في شكل دوائر.

وفيما كان يتسلى بهذه اللعبة قفزت إلى ذهنه صورة غرفته الخاصة في بيت والديه، كانت غرفة أنيقة، نظيفة،

ومرتبة ترتيبا يجلب الانتباه والإعجاب، تحركت إثرها في عقله جملة من التساؤلات، أدار بصره في أرجاء الغرفة، فامتد في عقله الفارق المهول بين مقصورته الخاصة في فيلة والده الفخمة، وهذه الغرفة العارية، وراح يستعيد بعض ذكرياته فيها وهو يحاور نفسه...

إيه ياسليم..أين ذاك الفراش الناعم المضمخ برائحة الورد، والياسمين، تتدفق عليك من شرفة بيتكم الجميل، وأنغام عبد الحليم..قربك نار بعدك نار..تفد إليك من نافذة جارتك الحسناء.. أين الرقة، والغنج الأنثوي الآسر، أين الدلال، وتلك البسمات السحرية،.. وأين ذلك الصوت الملائكي، وعذوبة حديثها المتدفق من ثغرها العذب شهيا ملهما كأنغام السماء..

أين أنت الآن من تلك الأيام السعيدة.. وأين المذاكرة الحلوة برفقة «إلهام»؟ آه من شقاوتها كم كانت حبوبة، وشهية، تقاسيم جسدها تحبس الأنفاس، وآه من نظراتها، تلك النظرات المنطلقة كالسهام من عينيها النجلاوين، كانت تلك الأيام جميلة وملهمة قبل أن ترحل إلى عش الزوجية... حين نجحت في الباكالوريا كانت الدنيا لاتسعك من شدة الفرحة والسعادة العامرة بالتألق، كم كنت تنسج أحلامك ممتطيا سيارة العائلة «المرسيدس»، وهي بجانبك تنشر حواليك الحبور والحب الوردي ...

لقد ضاع منك كل شيء ضاعت إلهام بين أحضان زوج لاتحبه، ولا تطيق أنفاسه، وضاع معها حلمك الصبي المتمرد.. حتى السيارة التي كنت تأمل في أن تؤول إليك، لم تعد تحت تصرفك... لقد أقسم الحاج باليمين العظيم أنك لن تنالها حتى تنتقل إلى السنة الثانية، ملعون هذا الجذع المشترك، لقد مكثت به عامين، ومازالت مقاييسه صعبة على مداركك، فتبا له من جذع، وتبا لها من مقاييس، لقد أضحى حظك معقودا بهذا الانتقال المستحيل ..

أين مائدة الطعام بما حلا وفخر؟تصنف أمامك الصحون مزدانة بألوان ما تفتقر إليه الأسواق الداخلية، وتقابلها بشهية لا حدود لها، وأمك الحاجة الطيبة تسهر على راحتك بنفسها، فقد كانت لاتترك الفرصة للخادمات للاقتراب منك، ولو لتقديم كوب ماء، إن تنشئتها في بيت عز وجاه، أسس دعائمه على احترام الأصول جعل منها امرأة محافظة ومنظمة بصورة منقطعة النظير، لهذا السبب كانت تخشى عليك من البنات وكأنها بذلك تحرص على صيانة شرف العائلة، لكنها لم تدر المسكينة أن ذلك التصرف الشديد كان يزيد في تعاستك، ويحرمك من مضاجعة الخادمة التي كانت تستجيب إلى رغباتك المفاجئة والمتكررة دون تردد..

قد تكون محقة في توجسها، ومحقة في خوفها عليك، لأن مثلك لا يميز بين رغباته، تشبه الدبور الذي لا يميز بين

الأجسام التي يلسعها ، كله لحم في نظرك، لافرق عندك بين الجسوم الممتلئة، والأجساد النحيفة ...

فاجأتك يوما متلبسا مع سعاد ، ولم تقل شيئا ..لكنك لم تر سعاد منذ تلك اللحظة الحميمية الساخنة، ومنذها صارت تشدد الرقابة عليك وعلى الخادمات اللواتي كن لا يمكثن طويلا في الخدمة..كانت تزن حركاتهن وتضعهن تحت التجريب، لكن لم يحدث أن واحدة منهن نجحت في الاختبار، فقدكان اختبارها صعبا ، وعسيرا على المتعففات اللائي دفعتهن الظروف إلى الاشتغال في بيوت الأثرياء، والوجهاء، بأساليبك الشيطانية كنت تعمد إلى اختلاق الحيل حتى تسقطهن في المحظور، لكن لم يحدث أن ندمت مرة واحدة على طرد أي منهن، كنت تجد متعة لم تتفطن إليها الحاجة، وهي رغبتك الجامحة في ضرورة تبديل الخادمات، ولاتحب أن تمكث الواحدة منهن في الفيلة أكثر من شهرين.

تلك هواية كنت تجد تسلية في ممارستها..و الحاجة لم تكن تعلم أن تغييرها للخادمات من حين إلى حين سوف يعجل في إيقاظ غريزتك اتجاه النساء انساقت لهذه الهواية دون أن تدرك عواقبها عليك.ومع ذلك فإن حرصها الشديد على تبديل الخادمات بمساعدة سمسارة تتقن عملها بشكل جيد، لم يحد من شبقيتك، بل تيقظت غريزتك، واستفحلت قبل الأوان.

كان ذلك مع امرأة مطلقة، أولى الخادمات في الفيلة، كانت تمارس الجنس بصورة جنونية، تنبهر، تفقد الوعي أحيانا تحت صهدها، وتوقدها، ومنذها صرت لا تحتمل الصبر على النساء وبخاصة منهن الناضجات اللاتي لهن تجربة كافية في الممارسة بطقوسها المحترفة، والحقيقة أن هناك سبب آخر جعلك تتفتح جنسيا قبل الوقت، وذلك أن الوالد دون أن يشعر الخطورة التي يمكن أن تصدر عن «الفيديو» اقتنى لك ما ترغب فيه من وسائل الترفيه، كان يعتقد أن تلك الآلات لا تستخدم إلا لغرض الفائدة والترفيه، ولكنها عندك صارت مصدرا للنزوات، فقد كنت تتظاهر بالمذاكرة، وتتفرج على الأفلام الجنسية، وعندما حضر المحضور مع الخادمة التي كانت آخر الخادمات في الفيلة ولاحظت الحاجة عليها علامات خافت من الفضيحة، فاختلقت حيلة وسرحتها بمعروف، حينها تفطن الحاج إلى السبب، فأبعد الفيديو وكل الأشرطة السمعية البصرية، وغير البصرية من غرفتك إلى الأبد، وأقسم بالإيمان الغليظ أن لن يسلمك مفاتيح أي سيارة من سياراتكم المركونة في المرآب إلا بعد أن تجتاز عائق الجذع المشترك الذي لصق بك، ولم تتمكن من التخلص من بلواه.

فالخطوة الأولى إذن هي الانتقال إلى السنة الثانية، والانتقال يعني التضحية بكل العلاقات التي ربطتها مع العديد من الطالبات، على كل لابد أن تتخلص من لعنة

الجذع المشترك التي تطاردك، والعمل على تعليمات الوالد، فهو على حق، لذا يجب الانصياع فلاخيار لك، والبركة في «سعيد» الريفي وملازمته حتى تصيبك عدوى المذاكرة كما أصابته ...

وقبل أن يستكمل شريط تهيآته حتى كان باب الغرفة ينفرج على قامة «سعيد» وهو يستقبله ببسمة هادئة أعادته من شروده، وفمه يفتر عن مداعبة ظريفة :

– سليم عقون في الغرفة وحده وفي هذا الوقت، غير معقول، فتقطع شريط التهيآت تماما من ذهنه، استبدلت أساريره بتقطيبة جمعت ما بين حاجبيه، مستغربا النبرة التي لم يألفها من سعيد قبل هذا الوقت، فهو يعلم أن هذا الشاب الريفي لا يزال غارقا إلى ذقنه في قيم وأعراف ريفه المنسي..ومن ثم لامبرر للهجته المداعبة هذه، دون أن تكون وراءها نية معينة مقصودة، فماذا يعني سعيد يا ترى؟.. ثم سرعان ما تجاهل الأمر، وعلى الرغم من الاستياء الذي شعر به في البدء، فقد استلطف ما جاء به سعيد، وأجابه بنبرة المدافع عن نفسه:

– إن كنت تقصد الشقة الحمراء، فلم يعد لها وجود في حياتي، ثم تفطن قبل أن يستطرد في الكلام إلى أن سعيد يجهل تماما أي شيء يرتبط بالشقة، وأسرارها ولاحظ الدهشة تستولي عليه، حينما حدجه بنظرة المكتشف، والمستكنف لخبايا الحديث، وتفطن إلى زلة لسانه.. واستطرد يقول :

– إني متعب يا سعيد، وأحس هموم الدنيا تضغط على صدري، ودوامة من القلق تبتلع أنفاسي، فاعذرني يا رفيقي في الغرفة.

فعاد الهدوء بعض الشيء إلى سعيد، وقد أولت طبيعة تفكيره الطيب الفعل تأويلات شتى، ردها إلى توتر العلاقة بينه وبين والده بشأن السيارة التي لم يعد يجلبها إلى الحي لمجرد رسوبه السنة الماضية، وحتى يبدد التوتر الذي لاحظه عليه حين ولج الغرفة، بادره بالسؤال :

– أتعشيت يا سليم؟ قالها وهو يخرج قطعة خبز محشوة بالبيض واللحم المفروم.

– لقد سرقني الوقت، ولم أتفطن إلى موعد العشاء.

فطمأنه وهو يكشف عن القطعة التي كانت ملفوفة في طيات الجريدة :

لا تحزن، فقد أحضرت لك لمجة، صحيح أنها غير كافية، لكنها مصبرة، تنفع إن كنت جائعا، فتناولها منه وهو يجيب :

– أنت تعلم أن الحاج قد قطع عني حتى المصروف الشهري المعتاد، لذا أشكرك على أنك تذكرتني في هذه الضائقة، وراح يقضم جزءا منها بغير شهية، وعيناه تسترقان النظر إليه من حين إلى حين، في محاولة إلى سبر أعماقه، والتأكد من أنه لم يعرف شيئا عن العلاقة التي تربطه بإلهام، وذهبت به الظنون إلى أبعد الحدود.. ثم تذكر من

توه أن قصته مع إلهام لم تتعد صديقهما «شرحبيل» .. ودار في عقله أن ذلك الشاب الفلسطيني لا يؤتمن جانبه، فقد يكون قد أسر إليه السر الذي آثره به وحده، لكونه يعلم الحساسية التي يمكن أن تسببها تلك الحكايا، وخاصة أنه يقيم معه في غرفة واحدة، ويعرف مسبقا تدينه الشديد ونفوره من عالم البنات، فقد كان يلقبهن ببقرات إبليس، ولما لاحظ الفرق بينهما، وأن لاقرينة يمكن أن توحد بينهما، أو تكون مبررة للحديث عن مثل هذه الأمور، طرد عن فكره هذا الظن، غير أنه تذكر من فوره، ذلك اليوم الذي باغتهما فيه سعيد عندما عاد من صلاة العشاء، فقد كان الباب مواربا، وكانا غارقين في سرد مغامراتهما مع الجنس اللطيف، لكنه استبعد أن يكون سعيد من الصنف الذي يتلصص على البشر ليلتقط أسرارهم، فأخلاقه تمنعه من القيام بمثل هذا السلوك، ولما سرق نظرة أخرى إليه رآه غارقا في قراءة الجريدة التي أحضر فيها اللمجة، فتعمق اطمئنانه، وأحس برغبة شديدة تدفعه إلى محادثته، وكأن العقدة التي ألجمته قبل هنيهة قد فكت، متيقنا أن سعيدا لم يعرف شيئا عن الشقة الحمراء، فدنا منه قليلا، ومعتمدا حافة السرير بساعده الأيمن :

– ماذا تقرأ يا سعيد لقد عودتنا بالمفاجآت؟

– رد وعيناه لاتبرحان صفحات الجريدة :

– لا شيء، ثمة مقال حول علاقة الدين بالدولة.

فأردف سعيد، وما يقول صاحبه، هل يقدم اقتراحا معينا؟

– لا لم أنهه بعد، لكن يبدو أنه ينتصر إلى إبعاد السياسة عن الدين.

– والله صدق، قالها بصوت خافت، كأنه يخاف أن يسمعه.

– ماذا؟

– لا شيء، أردت أن أقول إن هذا المواطن قد أفصح عن اتجاهه صراحة، وهو أفضل بكثير من الذين يتسترون بأفكارهم خلف آراء لايؤمنون بها، وتراهم يتلونون في الحياة ألوانا شتى، ولاشك أنك تشاركني الرأي في خطورة هؤلاء الذين لايقدمون شيئا للبلد وللشعب، في حين نلفي هذا المواطن قد أبدى رأيه صراحة، وهمه من وراء هذا الموقف هو إعطاء رأيه كما يراه، بغية المشاركة في النقاش الذي فتحته الجرائد واليوميات منذ فترة.

لما سمع منه هذا الرأي ولم يعجبه طوى الجريدة التي كانت بين يديه، ثم استدار إليه كلية، وقال له مستهزئا:

– أتنصفه وأنت لم تقرأ ما كتب، سبحان الله، أنت وغيرك، لا طائل مما تجترونه، مكتفين بفتات القول دون تمحيص، وتقدير العواقب، هذه أحكام عاطفية لا يحكمها عقل، وقبل أن يتم سعيد كلامه، ويفتر حماسه، أطلق سليم

قهقه رجت لها الغرفة، وقال بنبرة الذي لا يريد أن يدخل في نقاش عميق:

– اطمأن ياحبيبي، لافكرة ولاهم يحزنون.. أنا لم أخلق للسياسة، هي لك خض فيها ما تشاء، لقد قلت ما أومن به ببساطة، ومن غير لف ولادوران.

فحدجه سعيد بنظرة فيها ازدراء، وقد امتقع لون وجهه، وعلته سحابة من نفور، فقام من توه من على حافة السرير مبتعدا عنه، وهو يتمتم بكلمات لم تصل إلى مسامع سليم، الذي لم يعط بالا للمسألة، وراح يقطع الغرفة جيئة وذهابا ويداه ملتويتان إلى خلفه، كان يفعل ذلك حتى يحافظ على اتزانه، كي لا يدفعه الموقف إلى الإفصاح عما يختلج في دواخله، لقد كان مشحونا ممتلئا بالسخط والاستياء، لكنه أخفى غيظه، وغضبه، ولم يرد أن يكشف لرفيق غرفته مايشغل باله، فالوقت لم يحن بعد حتى يجابهه هو وأمثاله بما يخطط له الإخوة، كان مستاءً استياءً شديدا غير أنه أخفى استياءه، ولم يرد الإفصاح عن شيء مما يحسه، ثم تظاهر بعدم الاكتراث، وتظاهر بمواصلة النقاش في هدوء، دون أن يفلح في إخفاء شيء من الغضب والاستياء، قال له بنبرة فيها عتاب، ولوم : أيعقل أن يصدر مثل هذا الكلام من طالب في قسم الحقوق، والله عيب، فماذا نقول إذن عن عامة الناس الذين يحشرون أنوفهم في الصغيرة والكبيرة، والله عندهم حق عندما يناقشون أمور السياسة والفكر

والاقتصاد، مادام الجامعيون يفكرون بمثل هذا التفكير السلبي، الساذج، إنك يا سليم أشبه بالمرء المصاب بمرض الألوان، لاترى غير لون واحد، هو اللون الذي تصبح عليه وتمسي.

وفيما سعيد يتمادى في القول، وقد بدا كالخطيب المنبري المفوه، يصدر الأحكام ويقرر، فترت عن فم سليم ابتسامة صفراء، تنم عن اللامبالاة، وعدم الاكتراث بما ذهب إليه رفيق غرفته، وبالمناسبة، فرح لأنه استطاع أن يكتشف رفيقه في الغرفة، والذي كان أشبه بالدغل المعقد، لكونه نادرا ما يتحدث، وكثيرا ماترتبط تلك المناسبات النادرة بما يحدث، ويستجد في الحي بما له علاقة بشؤون الطلبة، ومناهج التدريس، وغير ذلك من المطالب الثقافية، والاجتماعية التي ينادي بها الطلاب باستمرار، ورأى أن يزيد في تعنيف الحوار الذي انفتح بينهما بغتة، بما يعمق استفزاز سعيد، فقال له والبسمة الصفراء لاتغادر شفتيه:

- إنك مخطئ يارفيق الغرفة، إن كنت تقصد الشهادة، فالشهادة لا قيمة لها عندي، وأنت تعلم أن نيل الشهادة حاصل، حاصل، ففي جميع الأوقات لا يخرج الطالب من الجامعة إلا ومعه شهادة ليسانس، فالمسألة كما تعلم، ويعلم الجميع مرتبطة بالوقت، فأنت مثلا تتخرج في أربع سنوات بالضبط، أما أنا فقد أتخرج في ست، أو سبع سنوات، في

جميع الأحوال أتخرج، فالشهادة إذن ليست معيارا، وكذا التدريس بالجامعة ليس همي المركزي.

لم يشأ سعيد أن ينجر وراء استفزازه، وكأنه علم بالمكيدة، وعلل ذلك في سره بأن سليم مستهتر لا يولي أهمية للقيم، ولا للأخلاق، لذلك عد الحديث ضربا من اللغو، وسكت عن الكلام، عملا بقول الحق، (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)، هكذا أول وقائع الحديث وأخلد للقراءة، بعد أن فتح كتابا كان مطويا أمامه على المنضدة، وما هي إلا ساعة أو بضع ساعة حتى قام إلى النور يطفئه، فشمل الغرفة سكون عميق.

7

في طريقه إلى غرفة لم الشمل كما يحلو له تسميتها، كان «شرحبيل»، يحث السير، ويوسع خطواته، ليختلف إلى الشلة، ويسأل عما إذا وصل «داود» من غيبته، لقد سنحت له الظروف هذا العام أن يقضي عطلته السنوية خارج الجزائر، في الأردن عند والديه المهجرين من الأراضي الفلسطينية، أخوه كان مسئولا بمنظمة فتح في فرع لها بمدينة الجزائر، كان قد وعده قبل أن يسافر، كما وعد بعض الطلبة الفلسطينيين الآخرين أن يبلغ مطالبهم إلى ذويهم هناك في عمان، لأن أغلب الطلبة الفلسطينيين المقيمين بالحي، لم يتمكنوا من السفر هذا العام .

أما البعض الآخر، فلم يفكر في مغادرة قسنطينة البتة، ومنهم «شرحبيل» الذي آثر البقاء، حتى يكون مستعدا نفسيا، وفكريا لدخول الامتحانات الاستدراكية، مع مطلع العام الجامعي الجديد بعد أن سقط في مقاييس أساسية للنجاح، والانتقال إلى السنة الموالية، ولكي يصير كذلك

على مقربة من خطيبته «مريم»، طالبة جزائرية تربطه بها علاقة غرامية، تحولت بعد سنة من تبادل الإعجاب والغراميات إلى خطبة رسمية، في الطريق إلى الزواج، فهذا المشروع المصيري الكبير، يتوجب عليه توفير مبلغ مالي محترم حتى يكمل ما تبقى من إجراءات وترتيبات الزواج الذي هو ليس بالبعيد، إضافة إلى البحث عن مسكن لائق، و الذي وجد له حلا مؤقتا، شقة صغيرة في أحد الأحياء العتيقة للمدينة، تقع فوق السطوح، عثر عليها بسعر زهيد، في شارع «العربي بن مهيدي»، تطل على جسر المصعد «علي ملاح»، بعد أن غادرها أحد الفلسطينيين إلى شقة مريحة، حينما انتقل مع زوجته الجزائرية إلى سكن مريح في حي بوالصوف، استفادت منه زوجته الطبيبة من قطاع الصحة.

أما الإشكال الآخر، فيتمثل في النقود التي سوف يجلبها له أخوه من الأردن، بالعملة الصعبة، ليحوله إلى سمسار معروف في أوساط الطلبة الأجانب إلى العملة الجزائرية، فقد كانوا يعمدون إليه لأنه يصرف المبالغ المالية بالعملة بأحسن ما تحوله البنوك الرسمية، ولذلك كل ما يرد إلى الطلبة يمر عبر هذا السمسار المشهور على مستوى مدن الشرق، قيل أن له شبكات في كل المدن الجزائرية الكبرى، وعرف عنه أنه يحول المبالغ المالية بالعملة الصعبة نقدا، وعدا، وبسهولة منقطعة النظير، لذلك يحظى بثقة كبيرة

في أوساط الطلبة الأجانب.. فشرحبيل عندما يحول المبلغ الذي جلبه إليه أخوه، سوف يتغلب على مشكلته، ويتجاوز المحنة التي لحقت به طيلة شهرين كاملين من التقشف، والاكتفاء بالضروريات الملحة، ..

قبل أن يصل إلى الطابق الثاني، قاصدا الغرفة التي نزل فيها أخوه لبعض الوقت، ساوره إحساس فطري جميل، وتبرعم الأمل في جوانبه بصورة مثيرة، لأن المكالمة التي تلقاها منه قبل أيام حملت في رناتها بعض المسرة والأخبار السعيدة، ولذا سارع إلى تأثيث الشقة جزئيا في انتظار تكملة باقي الأثاث الضروري الذي يليق بالبيت الزوجي، وقد بدا ذلك عندما عرض عليه مشروع زواجه ومباركته له، والإقدام على إتمام مشروعه دون التفكير مليا في الجوانب المالية، المهم أن والديه قد رحبا بالفكرة وهما مستعدان للمجيء إلى الجزائر لإتمام مراسم الزواج التي تستوجبها الأعراف، زادته تلك المكالمة إيمانا بضرورة المضي قدما على إنجاز مشروعه ...

عندما دلف من الغرفة رأى النور يتسلل من شقة الباب الموارب، فتخيله خيطا سحريا كفيلا بأن ينقله إلى عوالم الحياة السعيدة الممتعة، وكاد يقفز من شدة الفرح، عندما تدفقت في أذنيه قهقهة توحي بالحبور والانشراح، فعرف من توه أن الضحكة هي ضحكة صديقه ماجد الذي تنازل له عن الشقة وضحكته هذه تنطلي على خبر سعيد، لأنه

يعرف أسرار هذه االضحكة المجلجلة، فقد كان ماجد لا يطلقها إلا عندما تغمره المفاجآت السعيدة..

خطا خطوة، كأنه يتجاوز بها الأمكنة، والأزمنة، ويذيب المسافات المتباعدة إلى مناخات خصيبة، تضفي عليه وعلى وجدانه إشراقا ورغبة قوية في الإصرار والمضي لتحقيق أهدافه وانشغالاته، فتضاعفت ضربات قلبه، وأحس بالفوز يصير ملك يديه، فأسرع الخطى ودفع الباب.

ندت عنه إشراقة توسعت لتشمل ملامح وجهه كله، عندما وقع بصره على أخيه الذي كان يجلس في هدوء ووقار، فقام إليه وتعانقا طويلا...بكى شرحبيل من حرارة اللقاء، ومن شدة الغبطة التي غمرته، ولم تترك له مجالا لرباطة جأشه..

كان منتشيا، في قمة الفرح، مغمورا بالسعادة والحبور، سلم على الجميع، يشد على أيديهم ويستقبلهم بالأحضان..

سرق نظرة خاطفة إلى ماجد وقال :

- إيه الأخبار؟

فأجابه وهو في قمة الزهو:

- اطمئن حبيبي كل الخير، ثم أردف والورد والياسمين، فتدخل طارق وأكمل التعليق، وهو لا يكاد يقاوم البهجة التى غمرته :

– يكفي لأن تنسج به قلادة للمريومة، فضحك الجميع منتشين.

شاع في الغرفة الأنس والبهجة بقدوم شرحبيل، واكتمال الشلة في حضور «داود» الذي نزل عليهم ضيفا وآثرهم على النزول في أحد الفنادق بالمدينة، في حين استطرد جهاد :

– عقبالي إن شاء الله، ثم التفت إلى ماجد وهو يضيف مازحا :

– (حرام عليكو شباب أبق بينكو عازب)

فقاطعه طارق، وهو يضرب بإحدى راحتيه إلى صدره:

– رفيقك في الدرب.

أفسح الجميع ل ـ«داود» مجلسا، وقد بادره طارق :

– تشرب شاي.

رفع الإبريق إلى مستوى الوجوه المتلألئة بالمرح، وراحت الأنظار تتأمل الشاي وهو يسيل من فوهة الإبريق محدثا قرقرة عجيبة، تثير في النفس نكهة اللقاء، وذكريات السمر في ربوع «غزة»، و«دير الكرم»، وامتدت الأيدى وتعالت الكؤوس فوق رؤوس الجميع حتى اصطكت ببعضها، ودوت الغرفة بصيحة جماعية:

– بصحة العريس، وبصحة فلسطين جوهرة العرب والمسلمين، بصحة العالم العربي محررا من كل أشكال الطغيان.

فتألقت الوجوه، وبرقت العيون بالدمع، فتعانق الجميع، وقد توحدت القلوب على ذكر فلسطين حرة محررة، والحنين إلى مقاهيها الشعبية، وصوامع مساجدها العتيقة، وحاراتها المتعرجة، الضيقة، وسمائها اللازوردية الخالدة في الصفاء، ... وماهي إلا ثوان من الذوبان العاطفي، والتأجج الوجداني حتى بدأ الشمل يغادر الواحد تلو الآخر..وبقيت الغرفة تسبح في الصمت، إلا من جهاد وداود اللذين تمددا في سريريهما غارقين في تأمل عميق.

8

استقبل «سعيد» النسمات الأولى القادمة من غابة «المريج»، وملأ رئتيه بعبير الصباح المندى بنفحات الخريف، ثم ابتعد قليلا إلى الخلف، وراح يمارس حركاته الرياضية الخفيفة اليومية التي اعتادها قبل مغادرة القاعة، والتوجه إلى المسجد لإدراك صلاة الصبح جماعة، ثم المطعم لتناول فطور الصباح، ومنه إلى الجامعة .

الساحة المركزية للحي تكاد تخلو من الحركة إلا من بعض الطلبة الجدد، يتجمعون في شكل جماعات صغيرة غارقين في أحاديثهم البريئة حول متاعب النقل والإطعام.. ألقى تحية الإسلام على زمرة كانت قريبة منه، ومضى في طريقه نحو مصلى الجامعة حيث التقى ب «عبد الرشيد»، طالب قديم في الصف الرابع حقوق، يقطن بمدينة «بسكرة» ويحمل الكثير من عادات أهلها الطيبين، ينحدر من إحدى العائلات الوجيهة، أبوه من أثرياء بوابة الجنوب، وواحد من كبار تجارها، يملك ديوانا ضخما لتسويق التمور، يشغل

العشرات من الموظفين والعمال، لا تربطه بالديوان سوى علاقة الولاء، أما مسائل التسيير الإداري وتسويق الإنتاج، فقد أوكلها إلى أبنائه وبعض الموظفين من أبناء بلدته، بينما تفرغ هو للعبادة، ومساعدة المعوزين وذوي الحاجات، إذ لاتشعر وأنت تحادثه بذلك الفارق الكبير الذي يتمتع به في أوساط البلدة، كان متواضعا، خدوما، لا يتوانى في تقديم خدماته إلى كل من يلجأ إليه بغير استثناء، ولذلك جعل مكتبه الخاص الذي يزوره في أوقات قليلة ومتباعدة قبلة للمحتاجين، ويواظب على الحضور إليه طيلة شهر محرم، لاستقبال طالبي البر، والإحسان، يفد عليه الخلق جماعات، ووحدانا، يقصدونه من كل حدب وصوب، من داخل المدينة ومن خارجها، فسكان القرى المجاورة والبوادي البعيدة يسمعون بأريحيته وإخلاصه في منح الزكاة لذلك لا يتوانى عن أداء هذا الفرض بطيبة ورضى كلما قدم شهر محرم.

الحاج «بودقلة» أمنيته الوحيدة وهو يتلقى بشرى نجاح عبد الرشيد في شهادة الباكالوريا بدرجة جيد أن يتمدرس في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ويتخرج فيها متفقها في الدين وعلوم الشريعة، لكن الابن أبى إلا أن يلتحق بمعهد الحقوق، ويأمل أن يتخرج بشهادة المحاماة.

لما ولج «سعيد» قاعة الصلاة هرع إليه «عبد الرشيد»، عانقه، وفسح له، والابتسامة لاتفارق شفتيه، هامسا في أذنيه أن جئت في وقتك يا «سعيد»، فجلس سعيد مستندا إلى حائط المصلى، وقال متلهفا لسماع السبب: ما الأمر، فطمأنه عبد الرشيد وقال له :

– إن مكتب الطلبة قد اقترحك بالإجماع نهار أمس لتتولى الإشراف على أنشطة المسجد، وهو إذ زكاك بهذه الثقة، فإنه رأى فيك الشخص الأنسب لهذه المهمة النبيلة ..فأطرق سعيد قليلا لسماعه هذاالخبر، ثم نظر إليه نظرة ملؤها المودة، و رد :

– سأكون إن شاء الله عند حسن ظن صالحي هذه الجامعة والغيورين على إصلاحها، وأرجو من العلي القدير أن يمكنني من هذا الدور.

أديا معا ركعتي الفجر، وما هي إلا لحظات حتى شهدت القاعة حركة لم تألفها من قبل، أقبل طلبة كثيرون من أحياء جامعية مختلفة، بعضهم وفد من ولايات مجاورة.

تساءل «سعيد» في سره :

– لم هذا الإقبال غير المألوف؟ وأردف لاشك أن وراءه سر، ترى ماهو؟

شاهد وجوها جديدة، لم ير أصحابها من قبل، بعضهم ملتح، لحاهم طويلة، منها ماهو متدل على الصدور، ومنها ماهو قصير، وقليل منهم من كان أمردا، لكنهم كانوا

جميعا يرتدون أقمصة، وجلابيب فضفاضة، فوق سراويل قصيرة، ورؤوسهم مستورة بقبعات مزركشة، مصنوعة من مادة «الكشمير» توحي أنها من بلاد الأفغان، أو باكستان، أوتلك البلدان التي تشتهر بهذا النسيج المتميز بألوانه الخاصة، ما أثار انتباهه أكثر أن عيون هذه الوجوه الجديدة التي غشيت قاعة الصلاة هذا الصباح معظمها مكحل.

أضحكه هذا المشهد، غير أنه أخفى ذلك دون أن يتفطن إليه أحد، الكحل في دشرته مقصور على النساء فقط، أما أن يتكحل الرجال فهذا مستحيل أن يحصل، لم يسبق له أن رأى رجلا من رجال، أو فتى من فتيان دشرته مكحلا ..

ترك هذا المشهد حيرة في كيانه، لكنها تلاشت حين وقع بصره على بعض طلبة الحي المواظبين على الاختلاف إلى المسجد في صلاة الصبح، رآهم كما كان يراهم كل صباح، وفيما هو يعقد مقارنة بين هذه الطبيعة التي ألفها في من يعرف من الطلبة المحافظين المقيمين في الحي، وبين هؤلاء الذين لا يعرف عنهم شيئا.

أذن المقيم لقيام الصلاة.

ألفى نفسه في الصف الرابع أو الخامس، وقد عهد نفسه أنه يصلي مباشرة بعد الإمام صديقه «عبد الرشيد» في الصف الأول.

على يمينه شخص لا يعرفه وعلى شماله شخص آخر لا يعرفه، شم رائحة المسك تنبعث من لحيته الكثة، قوية، نافثة، فأوشك أن يسد أنفه غير أنه أدرك أنه في صلاة، فتحمل ذلك على مضض.

جلجلت القاعة المعدة للصلاة بآيات من الذكر الحكيم، صوت رخيم فيه إحساس قوي وجهورة في مخارج الحروف، تلاوة هذا الصباح متميزة، فيها جرس خاص، وانسياق عميق مع الحروف والكلمات، تنم عن تحكم صاحب القراءة في آيات الأحكام تحكما كبيرا، تلقاها سعيد بشيء من الانبهار، ثم سرعان ما غاص في معاني الآيات (..... فأصحاب الميمنة، ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، قليل من الآخرين، على سرر موضوعة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون).

حين انصرف المصلون، وأغلبهم من المقيمين الدائمين في الحي، تأهب سعيد يلتمس الانصراف، غير أن إيماءة من عبد الرشيد جعلته يعدل عن الفكرة، فتحول من الصف الذي كان فيه واختار مكانا في ركن من أركان المصلى ينتظر الجديد،

إذ أن إشارة عبد الرشيد لابد أنها تحمل الجديد، ليس من عادته أن يحبسه على الانصراف بهذه الصورة التي تكاد أن تكون أمرا، حتى لا يشعر بهما الآخرون من الطلاب الذين كانوا يتأهبون للخروج إلى المطعم، أو إتمام شيء من حصة النوم المعلقة، فقد ذهب ذهنه بعيدا دون أن يتفطن إلى الأمر الذي حدثه عنه قبل حين صديقه عبد الرشيد، ثم أخلد للانتظار والترقب عما كاد أن يحيره، ويدخله في دوامة من القلق، خصوصا وأنه لاحظ أن لا واحدا من هؤلاء المكحلين المسوكين، الملتحين قد غادر المسجد.

وتعمقت حيرته أكثر، عندما لاحظ انصراف الطلاب الذين يشرفون على نظافة وصيانة المسجد عن آخرهم، فالأمر بدا في ذهنه محيرا فعلا.

وكم كانت دهشته أكثر اتساعا، حيث نشطت في جوانبه غريزة الفضول تأكل من جوارحه أكلا، خصوصا عندما لاحظ عبد الرشيد يدنو من بعض المكتحلين ويسر في آذانهم شيئا لم يستطع استنكاهه، وكم تمنى أن يصيخ بسمعه ويلتقط ماكان يقوله صديقه لهؤلاء الغرباء، غير أن ذلك مستحيل في مثل هذا الظرف، وفي بيت من بيوت الله، ثم استغفر واستسلم للانتظار، والترقب..

انفض كل أبناء الحي ورواده من قاعة الصلاة وبقي سعيد وعبد الرشيد، وأصحاب العيون المكحلة الغرباء.

عندما عاد سعيد من شروده ألفى نفسه وسط غرباء بأتم معنى الكلمة، فهو لا يعرفهم، لا يعرف أسماءهم، ولايعرف من أين قدموا، ولا ماذا يريدون، لا يعرف نواياهم، ولم يستطع أن يقنع نفسه أن الصدفة هي التي جمعته بهم هذه الصبيحة، تأججت الأسئلة في ذهنه زادته توترا وقلقا، وأحس وهو في قمة الحيرة أن يضع حدا لها ويسأل صديقه «عبد الرشيد» فهو وحده الذي يعلم سبب مجيء هؤلاء في هذا اليوم، ثم أحجم عن الإقدام على الفعل تاركا نفسه فريسة لمختلف التأويلات التي لاحدود لها.

وفيما كان معلقا بهذه الأفكار، نهض أحد المكحلين من المكان الذي يجلس فيه، وبخفة مدهشة قام صوب باب المسجد فأوصده وأدار المفتاح في مغلاقه، ثم قام آخر إلى أزرار المصابيح يطفئها، الواحد تلو الآخر، ولم يترك سوى مصباح صغير خافت الضوء، لا يكاد يكشف عن الوجوه، حلق الجميع حول أطولهم قامة، وأقواهم بنية، ذي لحية كثة غارقة في السواد، عينيين محورتين، ومكحلتين، بالغتين في التكحل، ينبعث منها بريق حاد، ونظرة قاسية، كأنها الحديد.

تلا آيات من الذكر الحكيم، ثم أعقب التلاوة بدعاء قصير، وكأنه يسارع الزمن، ثم رفع بصره إلى «عبد الرشيد»، مومئا إليه لتناول الكلمة، ودون انتظار إلتفت إلى «سعيد» الذي كان بجانبه، وقال :

– سعيد الأحول، الذي حدثتكم عنه، فتعالت الأصوات مهنئة:

– مبروك الشيخ سعيد، مبروك عليك وعلى الجماعة إن شاء الله.

لم ينبس سعيد ببنت شفة من الحرج والخجل، ودون توضيحات أكثر، غادر الجمع قاعة الصلاة، قاموا إلى الانصراف دون أن يعرف «سعيد» أسماء هؤلاء، ولا هويتهم، ولامن أي المدن والأرياف قدموا.

9

باحة الجامعة تعيش هذه الصبيحة أجواء غير عادية، وجوه جديدة عجت بها الساحة، في زمر وجماعات، يتبادلون أحاديث قصيرة، ثم بجدية يوزعون على أخصهم حركة وخفة تعليمات سرية غاية في التكتم، أغلبهم طلبة قدامى في الصف الثالث أو الرابع، أما البقية فهم من الطلبة والطالبات الجدد.

لباسهم لايوحي بالتميز، فهم في ثياب عادية، حتى أن أصحاب السراويل القصيرة، والعيون المكحلة، غيروا من هيآتهم هذا الصباح واندسوا مع بقية الطلبة، ماعدا الطالبات اللاتي كن يتجلببن بجلابيب فضفاضة، مختلفة الأشكال والألوان، ويسترن شعورهن بخمارات داكنة، قليل منها ما كان فاتح اللون، بينهن قلة من المتحجبات المبديات مفاتنهن في غير إسراف.

أدرك سعيد الأحول، الذي كان برفقة عبد الرشيد الساحة أولى الحافلات التي تقلع من الحي إلى الجامعة.

سأل رفيقه في دهشة واستغراب.

– ماذا حدث؟ترى لم تجمهر هؤلاء هنا بدل التوجه إلى أقسامهم؟.

أجابه «عبد الرشيد» بهدوء، وكأنه كان على علم بهذا التجمهر : لابد أن السبب يعود إلى الظروف السيئة، التي يكابدها الطلبة، ألم تشعر بأن ثمة نقصا فادحا في الأسرة وأصغر الغرف يتجاوز عدد الطلبة فيها الأربعة، إضافة إلى رداءة الخدمات، فالوجبات التي تقدم في المطعم غير كافية، لا تغذي الطاقة التي يبدلها الطلبة في الدراسة، فرد عليه سليم :

أعلم، ولكن ذاك سبب يعالج بطرق أخرى، وليس بمقاطعة الدراسة والتجمهر في باحة الجامعة، ويبدو لي أن الظروف التي نعيشها في الحي حسنة، ولاتحتاج مثل هذه التعبئة..

فحدجه عبد الرشيد ودون أن يتركه يكمل كلامه راح يوبخه بالطريقة التي اعتاد توبيخه بها، قصد تنبيهه إلى أشياء لايعرفها، وقال له مشفقا :

أصلك طيب يا سعيد، عليك أن تكون صلبا، وشرسا، فالوضع الذي نكابده نحن الطلبة يحتم علينا أن لا نكون مسالمين، يجب أن نكون أقوياء في اتخاذ المبادرات، وإحداث المفاجآت حتى يستمع إلينا أصحاب القرار، فينفدوا مطالبنا دون قيد أو شرط.

وفيما كان «سعيد» يتبع بنظراته المتلصصة حسناء خفية عن الأعين، وبخاصة ملاحظات «عبد الرشيد» الحارقة، ونبضات قلبه معلقة بذاك الحب العفيف الذي تركه في قريتهم الهادئة، اختفى عبد الرشيد، التفت إلى شماله فلم يجده، لم يعط للأمر بالا، انضم إلى مجموعة من الطلبة، بعضهم رآهم ليلة الأمس في مسجد الحي، حين كلف وبورك بمهمته المتمثلة في الإشراف عليه، لكنه لم يلاحظ أن ثمة مهاما قد أسندت إليه، فإمام المسجد والقائم على شؤونه صديقه «عبدالرشيد»، وما زاد على المألوف أنه صار مواظبا على أداء صلاة الصبح والعشاء جماعة في المسجد، خوفا من الملاحظات التي قد تنسج حوله، وهو الذي أثير باختيار الجماعة، وأي جماعة، طلبة من صنف آخر، يلبسون أقمصة أفغانية، فوقها سترة بدون كمين، لا يهمهم في ذلك تطابق اللون، أو اعتناء بالزي، المهم أن تكون تلك الملابس مخالفة لما يلبس عندنا في الجزائر، وهم يتباهون بالتظاهر بهذا الزي الغريب على أعرافنا.

لم ينظر إليه أحد من تلك الجماعة الذين كانوا منهمكين بما كانوا منشغلين به.

بعد لحظات من التجمهر، والوقوف رأى بين تلك الوجوه صديقه «عبد الرشيد»، يتقدمهم في الصفوف الأولى، وهم ينتظمون في الساحة مشكلين صفوفا غاية في التنظيم، و يهتفون «الله أكبر، الله أكبر» في أداء جماعي تقشعر

له الأبدان، فعم الصمت، وخيم على الوجوه الحاضرة وجوم كأنه الفزع الأكبر، وحين همدت الهتافات، والتسابيح، تقدمهم شخص غريب عن الجامعة، فتناول المكبر المحمول، وأخذ الكلمة.

ولمجرد ما كبر، ثم بسمل وحمدل، حتى عنت له صورته، التي ظهر بها أول ما تعرف عليه أثناء صلاة الصبح من ذلك اليوم، الذي صار فيه ملكا لتعليمات كثيرة تأتيه في شكل توجيهات، شبه أوامر من صديقه «عبد الرشيد»، تأمله كان فارع القامة، قوي البنية، لكن بغير لحية، ولاكحل في عينيه، مع الحفاظ على ذلك البريق، الذي لم يغادر نظرته، تلك النظرة الحديدية القاسية، نعم، إنه هو، إنه هو بعينه، لاشك في ذلك ردد في سره، ممزقا بين الكثير من الأسئلة، وعلامات الاستفهام، التي كانت تطوقه، وتحاصر تفكيره.

– من يكون هذا الفارع، ياترى؟ أهو حقا طالب جامعي؟ولماذا تنصت إليه هذه الجموع الغفيرة بكل هذا الاهتمام، هذه الأسئلة، وأسئلة أخرى ظلت معلقة في ذهنه بلا جواب.

كلمة صاحب القامة الفارعة كانت مدوية، مجلجلة، من خلال مكبر الصوت، ختمها بدعوة واضحة إلى مسيرة صامتة في أرجاء ساحة الجامعة المركزية.

وما إن فرغ من إلقاء كلمته الحماسية، المهيجة، حتى انقسمت الجموع بطريقة عفوية، كأن الأمر محضر سلفا إلى مجموعات تشبه الفصائل، أو الكتائب، يتقدم كل فصيلة أو كتيبة شاب ملتح، وكان من بين البارزين الذي قادوا هذه المسيرة متزعما مجموعة من المجموعات صديقه «عبد الرشيد»، أما صاحب القامة الفارعة، فقد تبخر وسط الجموع مختفيا عن الأنظار تماما.

انطلقت المسيرة صامتة بغير لافتات، ولاهتافات، وكانت منظمة ومنضدة، فرقة فرقة، تبعد كل فرقة عن الأخرى عدة أمتار، والانطلاقة كانت من وسط الساحة إلى المطعم، ومن المطعم إلى البرج الإداري للجامعة.

10

الحي الجامعي يسوده هذا المساء هدوء حذر، يوحي بأن ثمة أمرا ما تحاك خيوطه في الخفاء، ويرتقب أن تمزق تلك الخيوط في أية لحظة، لأن الوضع ليس كما يرام... التحق الطلبة زمرا زمرا بباحة الحي، ومنها إلى بعض الغرف في مجموعات صغيرة من خمسة إلى ستة طلبة، وبعضها فاق هذا العدد بكثير، عجت الغرف التي قصدوها لتقييم المسيرة، والظروف التي رافقتها، وتعالت النقاشات فى شكل آراء واقتراحات، وانطباعات حول المسيرة الصامتة، وما يمكن أن يترتب عنها، مع ضرورة توخ الحيطة والحذر لأنها لم تكن مرخصة، ولاعلم لمسئولي الجامعية، والسلطات الأمنية بتنظيمها، ولا الأسباب التي دفعت الطلبة إلى تنظيمها.

هؤلاء كانوا أشد عزما وتصميما على المضي نحو التصعيد حتى ولو استجابت إدارة الحي إلى مطلبهم، إذ أنهم خططوا لأشياء لاعلم لغالبية الطلبة بها، فالمطالب

كانت واجهة تخفي خلفها أهداف أخرى لا يعلمها سوى رفقاء عبد الرشيد ومن سار في فلكهم.

صحا الطلبة على غير العادة، على ضجيج ومرج، وشعارات صوتية هاتفة بسقوط الإدراة، على الرغم من التحسينات النوعية التي عرفها الحي في الآونة الأخيرة، بخاصة مع مطلع هذا العام الجامعي، وتعالت الأصوات من كل الاتجاهات معلنة العصيان، توجهت جماعة ملثمة إلى مقر الإدارة، وأضرمت النار في الوثائق، والملفات، وقصدت مجموعة أخرى المطعم والنادي فحطمت بوحشية لامثيل لها كل مافيهما من معدات وأجهزة، ولم يكتفوا بالتحطيم الهمجي الشرس، بل رموا بكل تلك المعدات إلى ساحة الحي في استعراض ينم عن حقد دفين، بدا الأمر غاية في الوضوح، فوراء هذا التخريب شيء خطير يحاك في الخفاء، قد بدأت ملامحه ونواياه تنجلي، لقد برر هؤلاء فعلهم هذا بالاعتقال الذي تم في حق بعض الطلبة الغرباء عن الحي، والذين كانوا المشرفين الرئيسيين على المسيرة الصامتة المنظمة صباح أمس، من بين الموقوفين «عبد الرشيد» وثلاثة آخرون ..

استمر الوضع على هذه الحال، لم تهدأ الأوضاع التي كان يحركها أناس لاعلاقة لهم بالجامعة ولا بالحي، فبعضهم طلبة قدامي، وفيهم من لم يعرف الجامعة في حياته، والبقية طلبة سذج كانوا يقومون بتلك الأعمال دون

علم مسبق بالأسباب الحقيقة التي كانت وراء هذا التدمير الهمجي...

كانوا ينفذون تلك الأفعال دون وعي، أو قناعة حقيقية راسخة، مدفوعين بفعل الحماس الذي ألهبهم به ذاك الغريب، وعبد الرشيد ومن كان بصحبتهما، لم تهدأ الأوضاع حتى تدخلت قوات التدخل ورجال المطافئ الذين جاؤوا لإسعاف الجرحى من الطرفين، وإخماد النار التي كادت أن تأتي على المعدات والأجهزة.

11

مدينة «قسنطينة» التي كانت مؤهلة للترقية إلى مصف محافظة كبرى تضم بعض الولايات الشرقية، أضحت مدينة بائسة، طرقاتها مهترئة، ومشاريعها معطلة، زادتها البيوت القصديرية التي نبتت على ضواحيها كالطحالب بؤسا، وبشاعة، أما مياه الصرف فقد صارت من شدة اهتراء قنواتها طافحة على السطح في وضح النهار وعلى مرأى الجميع، والجميع صامت كأن الأمر لا يعنيه، وصار الناس من كثرة دوام هذه المناظر، لا يندهشون وهم يرون القاذورات مرمية كيفما اتفق على قارعة الطرقات وفي أماكن حساسة من المدينة، كما لا يتذمرون من المياه القذرة المتدفقة في أهم شوارع المدينة، يقطعونها قفزا، وأيديهم ماسكة بأنوفهم، ويمضون إلى حاجاتهم، متأففين.

لكن «الخروب» التي طلعت من صلب «قسنطينة»، والتي كانت تنعت في السابق بأنها مدينة الاسطبلات (نسبة إلى الاسطبلات التي كانت تشكل شارعها الرئيس، والتي

تحولت مع مرور الزمن إلى محلات ومقاه، وأماكن للتجارة المربحة تنطق بالنظافة والأناقة) قد صارت تنافس المدينة الأم، في توسعها، وتقدمها الواضح في النظافة والأناقة، وتحلي سكانها بسلوك الحضر المتمدنين.

قسنطينة أفلست، فقدت نكهتها التي كانت تميزها عن كل المدن الشرقية، وغدت «دوارا» كبيرا يؤمه ذووا الحاجات الظرفية، من الذين مازالت تربطهم بشوارعها الضيقة المتسخة مصالح قصوى، وغير هؤلاء لاتلفي في حاراتها الباردة غير سكانها الذين كرهوها، ولم يجدوا مقصدا آخر للفرار منها، أما «القسمطنيون» الذين يزعمون أنهم أحباب المدينة، فإنهم لا يشعرون إزاءها بأي حب، ولم يحركوا ساكنا أمام التدهور الذي شمل طابعها العمراني العتيق، وأدخلها في دوامة من الفوضى لاحدود لها أنشأوا مرة جمعية أطلقوا عليها «أحباب المدينة»، سرعان ما خلد أعضاؤها إلى الكسل، بسبب تزاحم مطامحهم الشخصية ومآربهم الخاصة.

اتخذوها مطية للتقرب من اهل الحل والعقد، ولما اكتشف اهل العقد والحل أمرهم هجروها إلى «بزنسة أخرى»، وهم دائموا التظاهر بأنهم أبناء المدينة، وسكانها من قرون، اتخذوا هذا الانتماء سلعة يروجون لها للظفر بود الوافدين الجدد، الذين يطمعون في مصاهرة "القسنطينيين"للتباهي بهذه المصاهرة الزائفة، لقد صاروا لأنفسهم، لا يعبأ بهم

الناس، وبخاصة الذين جربوهم وعايشوهم عن كثب، شأنهم في ذلك شأن مطرب الحي الذي لا يطرب سوى أهل الحي.

تبخرت في ربوعها تلك الهالة التي تلفعت بها طيلة عقود من الزمن (عاصمة الثقافة)، فمنذ غادرها شيخها وإمامها المصلح عبد الحميد بن باديس، صارت مدينة لكل شيء إلا الثقافة، فإنها بعيدة عنها بعد السماء عن الأرض، وأهلها أصلا لا يحبون الثقافة، والمثقفين، فالثقافة عندهم لا تتجاوز المالوف، والحوزي... والحرج.والطبخ التقليدي، أما سائر أشكال الثقافة فهي عدوهم اللدود، ولا يطيقون صبرا عند الاحتفاء بها، أو تنظيمها في المناسبات القليلة العابرة.

غادرها ابن باديس إلى غير رجعة، ولم تعد تذكره المدينة إلا مرة واحدة في السنة، تقيم أسبوعا احتفاليا أقرب ما يكون إلى التهريج، ترصد له أموال طائلة على حساب إصلاح قنوات صرف المياه المخالطة للمارة والعابرين، تنظم هذه الأيام التي يسمونها الأيام الثقافية ليوم العلم إحياء ليوم رحيله، ولاندري لماذا آثروا هذا اليوم على غيره من الأيام الأخرى التي يمكن أن تكون أكثر واقعية في ارتباطها بحياة الرجل، فقد احتفلت قسنطينة احتفالا منقطع النظير بمناسبة ختمه القرآن الكريم دراسة وتفسيرا، لكن هذه المناسبة لم ترق أهل العقد والحل، ورأوا أن يوم رحيله أفضل للتنوير من غيره من الأيام ..

حين يجيء هذا اليوم ترى الملصقات العملاقة التى صرفت عليها مبالغ هامة تحمل صورته وهو موغل في التفكير، قد يكون ذاك الانشغال العميق في لحظة تفكير حادة بما سيؤول إليه حال قسنطينة الثقافي والعلمي بعد رحيله، لاندري ربما كان هذا التخريج صحيحا فالرجل لقي العنت من قبل أسرته، ولم يجد من يتكفل برعايته والاشراف على تسهيل ضروريات حياته اليومية قبل شهور من رحيله ... أصبحت هذه الصور العملاقة، لا تشبه الصور، فقد كلحت ألوانها بفعل المؤثرات الطبيعية، ولم تعد تشرف الرجل، وقامته الإصلاحية التي عرف بها، توزع على أصحاب حافلات «طاطا» القادمة من بلاد الهند والسند، هذه الحافلات المجرمة التي أزهقت العديد من الأرواح لمردودها الردىء وتقادم آلياتها، إنها أشبه بالدبابات الروسية أيام الحرب الكونية الثانية، تتحرك في المدينة، فتترك وراءها دخانا كثيفا، مليئا بالسموم، حافلات متسخة، ومهترئة، مرقعة، ومدجنة، والراكب فيها يشعر أنه يعيش في زحام «كالكيتا، أو نيودلهي» الضاجة بالخلق، والبقر، حتى سائقوها، أو قاطعوا التذاكر فيها يشبهون بوجوههم النحاسية، والضاربة في السمرة، والعرق بعض الهنود الفقراء، ملابسهم غير نظيفة كأنما يمارسون الميكانيكا وليس قطع التذاكر، صدورهم عارية، وسواعدهم موشمة، تتبخر منهم رائحة العرق والنتانة.

فهذه المدينة التي أبهرت الغزاة على مر العصور، و فتنتهم بخصوصية موقعها وخصوبة أراضيها المترامية الأطراف أضحت مدينة بائسة، كانت تسمى في القديم «سيرتا» أتخذها ملوك نوميديا عاصمة لهم، فكان لـ «صيفاقص» قصر عظيم فيها، ولـ«مسينيسا» والملوك الذين تعاقبوا عليها كانت لهم فيها جميعا قصورا، وإقامات تسحر الألباب ببساتينها، وعبق الورود والزهر التي عرفت به أيام عزها، لقد اعتنوا بهذه المدينة العجيبة، المائسة في دلالها، وجلبوا لها العبيد من كل أنحاء الدنيا..

يقول التاريخ أن المدينة عرفت ازدهارا لامثيل له من العمران والمنشآت، والمنجزات الحيوية التي يسرت الحياة للمواطن القسنطيني، في عهد «صالح باي» الذى حكمها طيلة اثنين وعشرين سنة طارت شهرة قسنطينة، وطبق صيتها الآفاق، لقد كانت مفخرة الدولة العثمانية، للرجل فضل كبير على هذه المدينة المنسية في وسخها، وتقهقرها المرعب، تجلت انجازاته الضخمة في التشييد، والتزيين، وخلق الحركة الاجتماعية الإيجابية وسط السكان، فجامع سيدي الكتاني، وديار الشارع، وقنطرة سيدي راشد، فيما بعد، والعديد من البساتين شاهدة على تلك الحقبة الزاهية من تاريخها الطويل الحافل بالأمجاد، هذه المدينة التي صمدت في وجوه الغزاة على مر العصور والأجيال، وحافظت على

كل جميل فيها، لم تثبت اليوم أمام هذا الزحف البشري، الذي أحكم حصارها، وخنق أنفاسها بسلوكات غريبة.

حتى قصر «أحمد باي» الطاغية الجبار، الذي شيد مجده، وملكه على رنات الكادحين، لم يعد قصرا كما كان، فقد سيج بالأخشاب والمتاريس الإسمنتية التي أذابت كل عبق يذكر بتاريخه الحافل بالمواقف الكبرى، والمفاجآت النادرة.

يقول «فندلين شلوصر» الأسير الألمانى الذي جلبه معه أحمد باي في طريق عودته من الجزائر إلى قسنطينة، والذي صار من مقربيه وأهم معاونيه الذين وضع فيهم ثقته :

(يحتوي قصر الباي على أربعة أجنحة في مربع مائل، وقد خصص الخارجيان منها لاسطبلات الخيول، ويحتويان على أكثرها نبلا، ويكون الجناح الغربي البلاط، والمدخل والوسط إلى غرفة الباي، التي تقام فيه المجالس القضائية، ويستقبل فيها الأجانب.

والغرف الأرضية كانت مغطاة كلها بالآجر الأحمر، وجدرانها مدهونة ومغلفة بأنواع حجرية محروقة ومطلية بمادة لامعة.أما غرف القصر العلوية فذات ألواح، تغطي أرضيتها زراب تركية ملونة، وفي وسط القصر توجد ثلاث حدائق مربعة مفصولة عن بعضها، تربط بينها ممرات، وقد أقيمت حولها آبار محاطة بجدران.)

قسنطينة الجميلة، الفاتنة، التي قال فيها كاتب القصة القصيرة الفرنسي العظيم «جي دو موبيسان» :

(إنها مدينة ظاهرة، فهي غريبة في منشئها، يشبه واديها الثعبان الحارس الرابض عند قدميها، إنه يحيطها بهوة سحيقة، مرعبة وملتوية بصخورها اللامعة، إنه يجعل من المدينة جزيرة بأتم معنى الكلمة، تهيمن على أودية رائعة، مليئة بالآثار الرومانية ذات الأقواس العملاقة، مليئة هي الأخرى بالنباتات الرائعة..).

هذه المدينة التي أعجب بها كذلك الكاتب الروائي الشهير «غوسطاف فلوبير»، و الذي أحدث ضجة بروايته «مادام بوفاري» التي حاول أن يكشف فيها زيف المجتمع الفرنسي المحافظ آنذاك :

(إنها أهم مارأيت حتى الآن، تلك هي مدينة قسنطينة، بلاد يوغرطة، بواديها الرائع العميق، لقد تنزهت أسفلها راجلا، داخلها على ظهر حصان، فكانت رائعة تشبه النسر في القمة الشماء).

هذه المدينة التي كتب عنها بإعجاب شديد أدباء ورحالة عرب وغير عرب، وتغنى بجمالها وسحرها العديد من شعراء الجزائر، صحت هذا الصباح على تخريب وحشي لم تشهده منذ اجتاح الجيش الفرنسي حاراتها، وأزقتها الهادئة الجميلة ..

بدت شوارعها الرئيسية مزدحمة بالشباب الملتحي، وغير الملتحي، وصبيان من أعمار متقاربة، شباب، وكهول، وفدوا عليها من جهات عديدة من أنحاء المحافظة، في البدء كانت مجرد مجموعة صغيرة من الطلبة الجامعيين، نزلوا إلى الشارع احتجاجا على اعتقال بعض زملائهم إثر أحداث الحي الجامعي «زواغي سليمان»، سرعان ما عادوا أدراجهم من حيث أتوا، لكن الذي لم يكن في الحسبان هوأن شرذمة من الشباب العاطل، وتجار الأرصفة المتنقلين اغتنموا الفرصة بسبب منعهم من عرض سلعهم في الشوارع الرئيسية للمدينة، اندست بينهم شرذمة أخرى من المتشردين، ورواد الحديقة الوحيدة في قلب المدينة، المنسية التي تحولت إلى وكر يمارس فيه العاطلون، والشواذ، ودهماء المجتمع المنبوذون، الذين يعيشون على الهامش، أشياءهم الخارجة عن القانون أمام مرأى المارة، وممثلي حفظ النظام.

شرعوا، كالموج الهادر يتدفقون على المغازات الحكومية، الأمر الذي مكن أصحاب المحلات الكائنة في وسط المدينة من الهرع إلى إسدال ستائر محلاتهم الحديدية، بعضهم الآخر، وهم الفضوليون اكتفوا بوصد الواجهة الداخلية للمحل حتى يتابعوا ما يجري أمام أعينهم في استغراب واستهجان شديدين.

كانت صور النهب بالغة، وموغلة في الوحشية، جماعة اقتحمت مركز البريد، فيما توجهت أخري إلى مقر البنك

المركزي، ولولا يقظة وسرعة رجال الأمن الذين كانوا متواجدين بكثرة زمن الحادثة لوقعت الكارثة، طلقة أو طلقتان كانتا كفيلتين بإبعادهم، لكن طلقات الإنذار لم تثن من عزيمتهم، في نية السلب والنهب، فالتحقوا بالآخرين الذين سطوا على المغازة الكبرى الواقعة في حي «شارع فرنسا» بوسط المدينة، وكذا الأروقة التي لم تكن بعيدة عنها.

لم يتمكن العمال والموظفون من ردع الأمواج التي هاجمتهم في سرعة البقر، فاندحروا أمام زحفهم القوي الهائج، وحين شعروا بأن لا فائدة من المقاومة، والعناد، التزموا أماكنهم والحسرة تعصر أفئدتهم، فكانوا يراقبون ما يجري أمام أعينهم وكلهم غيظ وتمزق على ما آلت إليه مغازتهم مصدر عيشهم وإعالة عوائلهم.

في لمح البصر كان الشارع الذي يضم المغازتين أشبه بمشاهد الدمار التي تخلفها الحروب المدمرة،

على مسار الشارع أثاث مهشم، ثلاجات، تلفزيونات مكيفات، وأجهزة أخرى مرمية في الطريق، وقد حطمت بعض أجزائها، فلقد أخذوا ما خف وزنه وغلا ثمنه، وتركوا الأشياء التي لم يستطيعوا حملها، حتى الأشياء التي لم يستطيعوا حملها، حطموا بعضها.

علق أحد المواطنين، وهو يهرع إلى امتطاء سيارته، التي لم تنج من التحطيم :

– لم تر عيني قط مثل هؤلاء الوحوش في الغباوة والحقد الدفين.

فأردف آخر كان بدوره يتفقد زجاج سيارته المركونة في ناصية الشارع

– إنهم الجراد بعينه يا صاحبى، هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا مجانين أو عملاء لجهات عدوة مجهولة ..

حين تدخلت قوات مكافحة الشغب بالعصي معززين بخراطيم المياه الملونة الساخنة، والغازات المسيلة للدموع، خلت أهم الشوارع التي عاشت ذاك الفساد الأعمى، أو كادت، وما هي إلا لحظات حتى خلت الشوارع مسرح الأحداث تماما إلا من بعض السكان الذين كانوا متواجدين خارج بيوتهم يهرعون مهرولين مسلحين بالحيطة والحذر، وعيونهم تطفح بالدمع.

12

عاد «سعيد» إلى غرفته في الحي، الذى لم يغادره طيلة النهار، عاد باكرا بعد أن ألفى الطلبة عاقدين العزم على الزحف نحو وسط المدينة في مسيرة جماعية حاشدة، بغية رفع مطالبهم إلى السلطات الولائية، ولأنه لم يقتنع بالأسباب الهشة التي تشبث بها مسؤولو التنظيم الطلابي، وبخاصة عندما سرحت الجهات الأمنية كل الطلبة الذين اعتقلوا في أحداث الشغب التي عاشها الحي ليلة أمس، رأى صديقه «عبدالرشيد» مرفوقا بمعية وجوه لم يعرف أي واحد منها، رآهم يتوجهون نحو إحدى عمارات الحي، يحثون الخطى، فحمد الله على هذه النهاية السعيدة، متسائلا في ذات الوقت عن السر الذي جعل عبد الرشيد يرافق هؤلاء إلى تلك العمارة، التي لم يعرف واحدا من قاطنيها، فكل من يقيمون في غرفها إما أن يكونوا من الغرباء الذين يفدون على الحي من حين إلى حين لأسباب يجهلها، وإما أن يكونوا من الزوار الذين يقضون الليلة، أو الليلتين ثم

يغادروا، أو من بعض الطلبة القدامى الذين حرموا من تقاضي المنحة الجامعية بسبب رسوبهم المتكرر في الدراسة، فمعظمهم قضى في الحي ما يربو على العشر سنوات، ولذلك كان لهم دور، مما اكتسبوه من تجربة في توجيه مسار المنظمات المهيكلة في الحي، والتأثير في الطلبة الجدد.

وفيما هو يدير هذا التساؤل في عقله، وقد لف بالحيرة والاستغراب، حتى شعر بيد خفيفة الملمس تداعب كتفه، التفت، فإذا به الأستاذ «ماجد».

– أهلا حياك الله، أستاذ، كيف الحال؟

فرد ماجد بنبرة حزينة، مؤلمة:

– بخير.. ولكن.. وتعثر لسانه عن مواصلة الكلام، فقاطعه سعيد، لكن ماذا أستاذ، هل هناك مشكلة؟ لا، ليس لي والحمد لله، صديقكم «شرحبيل» ألم تسمع بما حدث له؟:

– خير إن شاء فقد رأيته نهار أمس يتجه مع جموع الطلبة إلى المدينة، لتبليغ المطالب، لكنه لم يعد مع الجماعة.. هل حدث له شيء؟

– نعم حدث له حدث جلل

– ماذا تقول أستاذ، هل أصابه مكروه، لاسمح الله؟

– المكروه الذي أصابه، كان هو السبب في الوقوع فيه.

– لم أعد أفهمك يا أستاذ، ألا وضحت لي، فقلبي صار ينبض بسرعة.

– لقد اقتادوه، إلى مقر الشرطة، ومنها نقلوه مباشرة إلى العاصمة بعد أن أخطروا السفارة الفلسطينية بالعاصمة الجزائرية. يا ما نصحته أن يهتم بدراسته فحسب، فهذه الأمور التي تجري في الجزائر لاتعنيه، ثم أن المشاركة في المسيرات والاحتجاجات لا يجوز قانونا، المهم أنه قد دفع الثمن، ثمنا غاليا كلفه تعطيل المشاريع التي كان يحلم بها.

لم يتركه يكمل التفاصيل التي أحاطت بعملية الاعتقال، وتحويله على وجه السرعة إلى العاصمة فقاطعه متسائلا :

– هل يمكن أن تتوسط له السفارة الفلسطينية، ليعيدوه، لمواصلة دراسته؟

فرد عليه مستبعدا ونافيا :

– لو كانوا قادرين على ذلك لما نقلوه مباشرة على أول طيارة متجهة إلى الأردن. لقد سمعت أنه قد سفر إليها بإيعاز من أخيه الأكبر المسؤول في منظمة فتح بالعاصمة.. المسكين لم يتمكن حتى من توديع خطيبته «مريم» لقد تبخر حلمه، وتهاوت الآمال التي عمل على تشييدها من عامين ..

لم يستوعب سعيد ما حصل لرفيق دراسته شرحبيل، وبخاصة حين رأى كل الطلبة الذين اعتقلوا عادوا إلى الحي، أو توجهوا مباشرة إلى أهليهم، فأردف :

لكن أستاذ حسب علمي أطلق سراح كل الذين اعتقلوا في الأحداث.

فأجابه وهو مطرق :

– قد يكون ذلك، لكن أوضاع الطلبة الجزائريين تختلف، فشرحبيل كما تعلم فلسطيني، بمعنى أنه لايحق له المشاركة في المظاهرات، والمسيرات، بحكم أن ذاك شأن داخلي، ومشاركة الأجانب يعني بشكل، أو بآخر تدخل جهات أجنبية في الأمور الداخلية، لقد كان يحشر أنفه في كل شيء، وها قد دفع ثمن تهوره واندفاعه الطائش، ثم سكت عن الكلام وانصرف.

13

المطعم هذا المساء يكاد يكون شبه خال، خمدت في أرجائه تلك الحركة الدائبة، وذاك الزحام الذي يشهده في أوقات معينة من النهار وبعد الغروب، فمن الحادية عشر والنصف حتى الواحدة زوالا، ومن السادسة والنصف حتى الثامنة والنصف ليلا، في هذه الأوقات ترى جموع الطلبة متراصة في صفوف وطوابير طويلة، وهم مسلحون بالملاعق، يتزاحمون على المقصف لاستلام أطباقهم، أغلبهم يعيد الكرة مرة ومرة، خصوصا إذا كان الطبق المقدم دسما، أو طبخ بطريقة شعبية، الطلاب يحبون الأطعمة الشعبية، قضاؤهم لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة في الحي يجعلهم يحنون إلى تلك الأطباق، فيهرعون إلى المطعم باكرين على خلاف الوقت المعهود، يقضون وقتا ليس بالقصير في انتظار تلك الأطباق.

في هذا المساء، اختفت تلك الطوابير، وصار الطلاب يكتفون بطبق واحد، طبق مليء ومتنوع، يكفي لسد الحاجة

كفاية تامة، حتى الظاهرة التي كانت شائعة، المتمثلة في لجوء بعض الطلبة إلى حشو قطع الخبز بما تتوفر عليه الأطباق قد اختفت.

إلتهم «سعيد» وجبة العشاء بشهية غير معهودة، وانصرف إلى غرفته في العمارة المجاورة للمطعم، سمع طرقات سريعة ومتتالية، فاندهش ترى من الطارق في ساعة متأخرة كهذه، ردد في صمته، ثم نهض متثاقلا وقد غالبه النعاس.

رفيقاه في الغرفة، لا يختلفان بالدوام إليها، ومن ثم لايمكن أن يكون أحدهما، وإذا كان لابد من أن يكون أحدهما قد جاء، فليس في هذا الوقت.

فتح الباب، فإذا بعبد الرشيد يتوسط المدخل ببنيته القوية، معه شخصان لا يعرفهما.

رحب بهما بحماس و هو يوسع لهما، عانقه عبد الرشيد، كما هرع إلى معانقته الشخصان الآخران، هكذا، وكأن شيئا ما يوشك أن يحدث، لكن لايعرف متى يحدث، ودون أن تتكاثر الدهشة، والحيرة في كيانه، قال له عبد الرشيد، كأنه يريد أن يضع حدا لدهشته وحيرته البادية على ملامحه :

– لا شك أنك مندهش لهذه الزيارة، غير المرتقبة في هذه الساعة المتأخرة، أومأ «سعيد» مؤكدا حدسه، وكأنه يريد أن يقول له : بل أكثر مما تصور، فأنا في قمة الحيرة، و دون أن يدعه يعلق، بادره بتقديم رفيقيه :

- الشيخ «ابو صهيب»، الشيخ «عثمان الأرقش» ثم أدار رأسه إليهما :

- كما تعرفون، «سعيد» فتانا.

تبادلوا ثلاثتهم تحايا التعارف، فيما ختم أحدهما طقوس التعارف، بقوله :

- منصورين إن شاء الله.

فرد الآخر :

- الله أكبر.

تأمل «سعيد» طلعتهما، كانت سحنتهما قمحية مائلة إلى السمرة، في جبين كليهما كدمة دائرية، صغيرة عميقة السمرة، شعرهما كان طويلا، قد فصل عن لحيتهما الكثتين بظفيرتين إلى الخلف... بعد هنيهة من استراق النظر إليهما، استقر هذا التأكيد في ذاكرته، لقد كانا حاضرين يوم اقترح مسؤولا عن رعاية المسجد، بل أن أحدهما، هو الذي قام إلى المصباح فأطفأه.. أجال سعيد بصره في أنحاء الغرفة، وكأنه يبحث عن شيء يقدمه إلى ضيوفه، ففهم منه «عبد الرشيد»، ذلك، فبادره بالقول :

- إن كنت تبحث عن علبة الشاي، فالوقت غير مناسب، لقد جئناك في أمر مهم، لا يطلب التأخير، هذا الأمر لا يخصك وحدك في الواقع، إنما يخص «الإخوة» كلهم.

لأول مرة يسمع «سعيد» هذه الكلمة في غير سياقها الثوري الذي عرفت به، فقد كانت كلمة «الخاوة» هذه متداولة

عند أفراد جيش التحرير الوطني، أيام الثورة المظفرة، ترى ماذا يعني «عبد الرشيد» بها في حي جامعي، وفي مثل هذا الوقت بالذات، فانتشله المدعو «عثمان الأرقش» من سرحانه :

– إننا جميعا مهددون في حياتنا بخطر لا نعرف متى، وأين يباغتنا ؟، ولذلك عليك أن تحزم أمتعتك الضرورية، الساعة، ولاتتأخر فالوقت ليس في صالحنا.

كتم أنفاسه التي تضاعفت في صدره طلوعا وهبوطا، ثم رأى أن يعرف سر هذا الخطر، ولماذا هو بالذات دون غيره من الطلبة، ثم أنه لم يشارك إطلاقا في أعمال الشغب التي مست بعض المرافق. فجمع أنفاسه واستدار إلى عثمان الأرقش :

أي خطر ياسي عثمان؟، لم أفهم، أشعروني أن كان هناك شيء يحاك لي دون علمي؟

فرد عليه عثمان برباطة جأش دون أن يبدي غضبه، قائلا له :

– من فضلك «عثمان الأرقش»، السيد هو الله وما نحن إلا عبيده، لاحول لنا ولاقوة، ثم أراد أن يبدد كل مظهر من مظاهر الحيرة التي غشيته منذ ولوجهم غرفته، كما أراد كذلك أن يقتحمه بالسبب المباشر دون لف ولا دوران.

فخاطبه وهو يحدج في ملامحه بنظرة قاسية وجادة :

- لابد أن تعرف أنك مطلوب لدى مصالح الأمن، كما الشأن بالنسبة لنا جميعا، فالوقت ليس في صالحنا، فإن انتظرنا إلى الصباح فسوف يداهمونك أنت، وعبد الرشيد في غرفتيكما، لذا من صالحنا جميعا أن نمضي الليلة وليس غدا وهكذا دون تماطل أو انتظار، إن الأمر في غاية الخطورة، فالظروف لاتسمح بان ننتظر أكثر مما انتظرنا.

ساعدوه على لم وحزم أمتعته، ومرقوا أربعتهم من باب العمارة، ولما أدركوا مدخل الحي وجدوا في انتظارهم سيارة أجرة قادتهم إلى حي شعبي يقع في الناحية الشرقية للمدينة.

كانت الظلمة شديدة السواد، والحركة منعدمة، عندما دخلوا بالسيارة حي «واد الحد» المغمور في حلكة عميقة، أيادي خفية لم تترك مصباحا واحدا من المصابيح القليلة الشاحبة التي كانت تنير بعض جنباته، كان شباب الحي قبل أن تتوسع دائرة الفتنة، وتتقد فتيلتها، يسهرون تحت أعمدة الكهرباء، يلعبون ورق الرند، أو الدومينو، بعضهم يتطوع بإبريق من الشاي، أو القهوة، كانوا سعداء فيما بينهم، راضين رغم بطالة أعظمهم، الآن لم يعودوا يختلفون إلى بعضهم، ولا يلتقون تحت أعمدة الإنارة، رغم حرص أعوان البلدية على تبديلها مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، وعندما يئست مصالح البلدية من التبديل المستمر تركت الحي على حاله، فغرق في ظلام دامس، صار السكان

يحتاطون، ولا تتوارب الأبواب إلا لأمر جاد وضروري، سمي هذا الحي القديم واد الحد، نسبة إلى موقعه، فهو يحد قسنطينة من جهتها الشرقية، كان يطلق عليه في القديم «واد الكلاب»، عبره زحفت الجيوش الفرنسية القادمة من«قالمة» لغزو قسنطينة أيام أحمد باي التركي، لم يكن يعرف العمران الذي يشهده الآن، ولا أقيمت في جوانبه المجمعات السكانية، كان عبارة عن حقل واسع الأرجاء، وبعض المزارع التي كانت في الأصل مزارع للكولون، حتى عام 1957 عندما أقدمت السلطات الاستدمارية إلى جمع السكان في مجمعات سكانية تسهل مراقبتهم، ورصد تحركاتهم، كما كانت حادثة فيضان «واد الرمال» سببا آخر في ترحيل السكان الذين كانوا يتاخمونه على الضفاف، ونقلهم إلى هذا الحي، ومع مرور الزمن صار الحي من أشهر الأحياء التي تعرف حركة تجارية منقطعة النظير، فكل الأنشطة التجارية المرخصة، وغير المرخصة تقام فيه، سكان المدينة يقصدونه نظرا للأسعار المغرية التي يقترحونها التجار الذين لا يملكون سجلات تجارية ..

السيارة التي أقلتهم تسير بغير اشتغال الأضواء، أطفأ السائق محركها، عند بيت ذي طابقين، في طور الإنجاز، أقيم في أسفل الحي منعزلا عن البيوت الأخرى، لم تنته الأشغال به بعد، ولسبب ما أدلف «عثمان الأرقش» من الباب الحديدي الكبير، وطرق طرقات خفيفة، لكنها مميزة

أقرب إلى الإشارات أكثر منها طرقات.. فانفرج بحرص بعد أن تطلع أحد هم من أعلى البناية بتلصص.

دخلوا جميعا، كان البيت بغير إنارة كهربائية.

- السلام عليكم بادر بها «عثمان الأرقش» فرد الشاب :

- عليكم السلام ورحمة الله، الله أكبر، دخلوا غرفة كبيرة شبه مظلمة، مضاءة جوانبها الواسعة بمصباح زيتي، وشمعتين، خالية من الأثاث إلا من أفرشة من الحلفاء، وبعض الأغطية المهترئة لكثرة الاستعمال.

وجد «سعيد» خلقا كثيرا في تلك الغرفة، شباب يافع من مختلف الأعمار تبدو من ملامحهم القسوة والاندفاع، ولا واحد منهم يشبه «سعيد».

سعيد وحده، يبدو هادئا مسالما، أما هؤلاء جميعا، فتلحظ من نظراتهم الحديدية الدقيقة إصرارا كبير على التحدي واللامبالاة.

علم «سعيد» من توه أن هذا البيت قد جعل خصيصا كمحطة انتقالية للعبور إلى أماكن أخرى يجهلها، يبدو ذلك من خلال افتقاره للتأثيث الضروري للبيوت الدائمة الإقامة، وكذا افتقاده للمرافق الضرورية.

قيل أن البيت يعود لأحد الإخوة النشطين في صفوف الجماعات المسلحة، اعتقل منذ عامين، ونقل إلى معتقل «عين أمقل» بغرض عزل النشطين الإسلاميين، وتفريغ

عقولهم من الأفكار التي آمنوا بها، غير أن الأمور جرت عكس ما خطط لها، فقد استغلوا فرصة تجميعهم في المحتشدات، لتنظيم صفوفهم، و تحديد المناطق، وتوزيع المسئوليات والمهام.

هناك نظموا أنفسهم تنظيما محكما، وقسموا الوطن إلى نواحي ومقاطعات، وعلى رأس كل ناحية، أومقاطعة عينوا مسؤولا، يدعى الأمير الجهوي، أو أمير الناحية.

بعد نيل قسط من الراحة، وتناول بعض الشيء من الرطب والحليب دخل عليهم صاحب البيت، فقاموا جميعا يعانقونه، الواحد، تلو الآخر، عندما وصل دور «سعيد» ضمه إلى صدره، وأسر في أذنيه :

- أخوك في الله «فاتح الصفاقصي».

جلس، فجلسوا جميعا، التفت إلى عثمان الأرقش، وقال له :

- تقضون الليلة هنا، وقبيل الفجر، ستتوجهون إلى مسجد «الأرقم»، الكائن «بحي الثوار»، هناك ستقيمون صلاة الصبح، وتمكثون به حتى ينقضي اليوم، غدا الجمعة، ستحضرونها مع أخينا « مجيد الأفغاني».

انصرف إلى غرفة في الطابق الأول، وتركهم يتبادلون التعارف، وبعض الأحاديث المقتضبة حول ظروف الجماعة، والأخبار الجديدة التي وصلتهم الأسبوع الأخير من الشهر، كانوا جميعا بما فيهم عبد الرشيد والذين قدما معهما

يشكلون جماعة تعدادها العشرين نفرا، فيهم الطالب الذي تورط في عمل سياسي دون أن يشعر، وفيهم التاجر الذي اكتشف أمره من قبل الأجهزة المخابراتية، وتموينه للجماعات المسلحة، وفيهم الخياط، والممرض، والبناء، الطباخ ...

علم «سعيد» من خلال مادار بينهم من حديث، أن «فاتح الصفاقصي» من جذور تونسية، انتقل بعد الاستقلال وهو صبي غرير رفقة أسرته مع الجزائريين الذين لجأوا إلى الحدود التونسية أيام الثورة، وأنه حاصل على شهادة الماجستير، لكنه لم يقبل في الجامعات الجزائرية، لمواقفه السياسية، ومعارضته الشرسة للنظام، عندما أقدمت الحكومة على إلغاء الانتخابات البرلمانية، التي فاز بها حزبه بالأغلبية، انخرط في العمل السري، و صار واحدا من المطلوبين من قبل الأجهزة المخابراتية.

قبض عليه في إحدى المداهمات، فاقتيد إلى معتقل «رقان» في قلب الصحراء، مكث به قرابة العامين، بعدها تمكن بحيلة أن يتسلل مع الزوار الذين كانوا يزورون أهاليهم وذويهم هناك، دون أن يتفطن إليه رجال الحراسة ..

في طريقه إلى قسنطينة وجد تسهيلات كبيرة من قبل أفراد الشعب المتعاطفين مع الجبهة، دخل قسنطينة متنكرا، وصار يغير من شكله وهندامه كلما تطلب الأمر ذلك..

أما البيت فقد شيد في غيابه، تطوع لإنجازه مقاول، مقابل الصفقات التي كان يحصل عليها حينما كان الحزب

يشكل الأغلبية في الهيئتين التنفيذيتين للبلدية والولاية قبل أن تقدم السلطات العليا على إبعادها، وتعويضها بمندوبيات، ثم أوقفت الأشغال بأمر من صاحب البيت، الذي لم تعرف الأجهزة الأمنية أن البيت يعود إليه بعقد عرفي، ومنذ فراره، والتحاقه بقسنطينة صار مكلفا بانتقاء الأعضاء الجدد المؤهلين للانخراط بعد تحريات يقوم بها أفراد آخرون تحت إمرته على مستوى الشرق القسنطيني.

14

شرع مجيد الأفغاني يخطب في جمهور المصلين من وراء حجاب، صوته وحده يتفجر من مسارب مكبرات الصوت، المثبتة في زوايا المسجد، مخارج حروفه تكاد لا تفصح، تأتي قوية مجلجلة تكاد تهتز لها عتبات المسجد، لكنها غير واضحة المعاني، ولسبب ما توقف فجأة، ليعلن أحد الملتحين من مقدمة الصف الأول للمصلين بضرورة إخلاء قاعة الصلاة، والخروج إلى ساحة معشوشبة بالجوار، غير مهيأة، ولا مفروشة لسماع الخطبتين، طلب منهم ذلك، دون توضيح للأسباب، سمع من أحد المصلين وهو يقول في أذنه بصوت هامس، ضرورات أمنية.

انتشر المصلون فى أرجاء الحقل مشكلين شبه صفوف، تحت سياط الشمس الملتهبة، الشديدة، قدموا إلى المسجد من أماكن عديدة..

بعضهم وفد من قرى ومداشر قريبة من المدينة، جاءوا في مجموعات صغيرة، بدؤوا يفدون للصلاة في المسجد منذ

الساعات الأولى لليوم، كان حدثا كبيرا بالنسبة إليهم، لأنهم سوف يصلون خلف أمير كبير سمعوا عنه كثيرا لكن لم يروه..

أغلب الذين حضروا هذه الصبيحة، جاءوا خصيصا لرؤيته، دفعهم إلى ذلك حب الفضول، والتظاهر بالإخلاص إلى الجبهة، لكنهم ألفوا أنفسهم في رقعة من الأرض البور يسمعون الخطبة ولا يرون صاحبها.

كانت الخطبة حماسية، نارية يدور فحواها حول الجهاد في سبيل نصرة الله، تسرد المعاناة التي يعيش أوزارها المجاهدون في الجبال، كما سماهم الخطيب، مستعرضا بعض ما كانوا يلاقونه من نقص في المؤونة، والأغطية، واللباس، وغير ذلك، وهو السبب الذي جعل الخطيب يركز على ضرورة تقديم المساعدة، فكان يقول :

- كل ما يمكن أن يقدمه المؤمن من مال، أو غذاء، أو لباس يجد طريقه إلى نصرة الحق، إن شاء الله.

استغرب «سعيد» كلمة «المجاهدين» وقال وهو يحاور نفسه :

- لابد أن الأمر قد تطور، ويصعب علي في غمرة هذا الإحساس الخطير أن أغادر، وأعود إلى بيتنا في الريف.

ولما قلب الأمر إلى وجوهه المختلفة، تبين له أنه قد تورط فعلا، ولا يمكنه التراجع، فالأمر انفلت من بين يديه، وإذا

أقدم على الانسحاب فسوف يصفى كما صفي من تعمد ذكرهم له «فاتح الصفاقصي» ليلة أمس.

ولما لم يجد حلا يخرجه مما ألفى نفسه فيه، استسلم إلى الأمر الواقع معللا المسألة إلى أنه سوف لن ينجو في الحالتين، فإن تسلل، وعاد إلى الجامعة، فإن المخابرات لن تتركه، كما قيل له، وإن عاد إلى دشرته، أو عند عمه في القرية فسوف لن ينجو من ملاحقتهم له، لذلك في جميع الأحوال هو معرض للموت، أو التصفية، ومن ثم لامناص له من التسليم بالأمر الواقع، الذي فرضته عليه الظروف في لحظة من لحظات عمره الحاسمة، أما إذا وقع في أيدي رجال المخابرات فسوف يؤول مصيره إلى تعذيب خرافي، كما كانوا يقولون له. لما تذكر ذلك استسلم استسلاما عميقا لحاله، وهمد قليلا بعد توتر حاد، وشديد.

لما أمر القيم المتخفي بدوره خلف أبواب المسجد للقيام للصلاة، نهض وحاول أن يختار مكانا نظيفا غير معفن لجبينه حين يسجد للصلاة، لكنه لم يفلح في ذلك، فقد سجد قرب أشلاء هر ميت، متقدم التعفن، والتفسخ، اقتحمت أنفه رائحته النتنة الخبيثة، فتجلد وصبر، وصابر على مضض، حتى لايثير الانتباه.

انفض الجمع ممتلئين بالغضب والسخط على النظام الذي كانوا يصفونه بالجائر، فقد شحنوا بشحنات قد تدفع صاحبها إلى التهور، الخطبة لم تكن عادية، كانت حماسية

فوق اللزوم، هاجم فيها «مجيد الأفغاني» كل أسلاك الأمن وجعل النظام بكل موظفيه وهياكله كافرا كفرانا مبينا.

هذه هي المرة الأولى التي يتعرف فيها «سعيد» على مجيد الأفغاني عن قرب رآه كما يرى أي مخلوق مثله.. لقد سمع عنه أنه صاحب كرامات، دوخ الروس بدهائه وكراماته، التي لاتعد، فقد قيل عنه، أنه بحفنة تراب استطاع أن يبدد كتيبة كاملة.. أصيب الجيش الروسي بالعمى، فراحوا يطلقون النار على رفاقهم، والذين نجوا منهم أصيبوا بداء غريب.. في أفغانستان كان المقاتل رقم واحد في صفوف المقاتلين الأفغان العرب..

مجيد الأفغاني أول مؤسسي النواة الأولى للأفغان العرب،، جعل منها قوة تهابها القبائل الأفغانية، بكل تركيباتها، وجذورها العرقية، مما دفعهم إلى احترامه، واحترام اتباعه الذين استوطنوا المدن الأفغانية، وصاروا ملاكين، وتجارا كبارا، لما استتب الحكم لطالبان عاد إلى الجزائر لتنظيم ميليشيات بإيعاز من القائد الروحي للقاعدة.

15

مدينة «جيجل» الساحلية تعانق البحر في حياء واحتشام، كانت الشمس قد بدأت تتوارى خلف الغابات الكثيفة، والجبال التي تكتسي خضرة دائمة، عندما دخلت السيارة التي تقل سعيد وأربعة من رفاقه، بمن فيهم «عثمان الأرقش» الذي كان يقود السيارة.

انبهر «سعيد» بهذا التشابك الغابي، الذي يخاصر الطريق الوطني من الجانبين، ملأ رئتيه بالنسيم المضمخ بالينناعة، والخصوبة، مستسلما لحاله، لقد صار واحدا من المجاهدين، وهو الآن رقم من الأرقام العديدة التي التحقت بهذا التنظيم بقناعة، أو جلبت للإنضمام إليه بالحيلة، والخدعة.

توقفت السيارة في محطة الحافلات الشرقية، وترجلوا من السيارة قاصدين مقهى لا توصد أمام روادها إلا في ساعة متأخرة من الليل، كان ذلك بإيعاز من أميرهم في هذه المهمة «عثمان الأرقش»، وبعد لحظات اقترب من مجلسهم رجل كهل، سلم وجلس بجانب «عثمان الأرقش» وهو يهلل أن مرحبا بجنود الرحمان.

لكنته جيجلية، توحي بأنه من سكان الضواحي، ليس من جيجل المدينة، رحب به عثمان الأرقش وهو يدس في جيبه رزمة من الأوراق النقدية، ذات فئة ألف دينار، وهو يوصيه، قائلا :

– الجماعة في ذمتك، إياك، والتهور، أنا أعرفك، فالأمر أخطر مما تصور، توخي الحذر في الطريق، إن الأمر في غاية الحساسية.

أجابه، وهو يتحسس المبلغ الذي أدخله في جيبه :

– لا تقلقوا، أهي المرة الأولى التي تتعاملون فيها معي، هم إخواني، وأنا واحد منهم، ما يصيبهم يصيبني.

فرد عليه عثمان يريد أن يبتر ثرثرته :

– لا نشك فيك، إنما الظروف الدقيقة، التي نعيشها هذه الأيام تتطلب منا أكبر قدر ممكن من الحيطة، والاحتراس.

بالحدس علم «سعيد» أن هذا الرجل يقطن ببلدية «العوانة»، ويعمل سائق أجرة، اختارته الجماعة لكونه معروف لدى مصالح الجيش وأسلاك الأمن بتورطه في الكثير من القضايا التي لها علاقة بالحشيش والخمر، وقد تم اختياره، بحكم أنه لايثير الشبهة، مهمته الأساسية توصيل الأفراد الوافدين على المنطقة من جهات الوطن المختلفة.

أعاد يده إلى جيبه فتحسس النقود، ثم قام وهو يخاطب الجماعة :

- على بركة الله، فالشمس أوشكت على المغيب.

ودعهم «عثمان الأرقش»، فقام الجميع يعانقونه، ولما وصل دور «سعيد» قال له في أذنه :

- لاتخف على والدتك ستكون بخير إن شاء الله، ..ولما شعر أن «سعيد» يريد أن يشي بحديث متكتم في صدره، حاصره بما من شأنه أن يطمئن والديه مربتا على كتفه، وهو يقول :

- لا تبتئس سنخبرهما في الوقت المناسب.

والتفت إليهم جميعا :

- هيا توكلوا على الله، وسيروا في أمانه، الجماعة في انتظاركم.

سلكت السيارة المرقمة بولاية «جيجل»، والتي كانت عائلية، أرائكها متسخة، تنبعث منها رائحة الرطوبة والعرق، مجهزة براديو كاسيت طريق البحر.

الطريق إلى «العوانة» كان قليل الحركة إلا من بعض السيارات الملاكي، والشاحنات العسكرية، تسير في شكل قوافل، مرت القافلة الأولى، ففسح لها السائق، وهو يلوح في الفضاء بتحية، ثم مرة ثانية، فثالثة، فدخل الرعب قلب «سعيد» وهو يداري حديثا خافتا كان يتزاحم في صدره، ترى ما الذي نقاتل نحن، أنقاتل هؤلاء، أنقاتل أمثال عمي المتقاعد في صفوف جيش التحرير الوطني، أم نقاتل أصدقائي الذين التحقوا بصفوف الخدمة الوطنية؟.

تذكر حكاية من الحكايات الكثيرة التي رواها له عمه حين انتقل من الريف إلى القرية لمواصلة دراسته الإعدادية والثانوية :

كن رجلا يا «سعيد» أبوك مجاهد من الطراز العالي، ضحى بكل شيء من أجل تحرير الوطن، لما خفقت أجنحة العلم على ربوع الجزائر سرح نفسه من الجيش والتحق بأرضه، مفضلا فلح الأرض على الكثير من الوظائف التي وفرت له آنذاك.

ظل يرعى الأرض بكده وتعبه، مرددا :

– من أجلها كافحنا، ومن أجلها نعود.

تذكر على لسان عمه كيف حاصر العساكر الفرنسيون دشرتهم، أضرموا النار في البيوت المتناثرة عند سفح الجبل، لم يرحموا ضعيفا، كانوا لا يفرقون بين الشيخ، والطفل، والعجوز، أتلفوا كل شيء، أمروا الأهالي بجمع محصولهم السنوي وكدسوه في الساحة، ثم أضرموا فيه النار، تعدوا على أعراض الصبايا، من بنات القرية تحت مرآى أمهاتهن وكل الأهالي، لقد فعلوا بهم ذلك لأن أهالي الدشرة لم يريدوا الإفشاء عن المكان الذي لجأنا إليه أنا، ووالدك وبعض الجنود ممن كانوا معنا، .. عندما فوجئنا بمحاصرتنا بالعشرات من العسكر ورجال المظلات، أشار علينا الشيخ الذي أوكلنا إليه حراستنا أن القوات العسكرية قادمة نحو الدشرة، لجأنا إلى دغل بالقرب من الدشرة به دهليز

يفضي بالخروج إلى مكان آخر بعيدا على ضفاف الوادي، تسللنا عبر نبات الدفلى، وسيقان القصب، حتى أدركنا نهاية المصب، فيه وجدنا بعضا من أفراد فيلقنا، اغتنمنا فرصة عودتهم إلى الثكنة، وأمطرناهم بوابل من القنابل والرصاص، قتلنا منهم خلقا كثيرا، وفقدنا خمسة شهداء من صفوفنا، من بينهم «السي العربي» قائد الفيلق رحمه الله، ورحم كل الشهداء، منذ ذلك الوقت لم نعد إلى دشرتنا إلا بعد أن أخذنا استقلالنا.

وفيما هو معلق بشريط الذكريات، وتلك الحكاية الجميلة التي سردها عليه عمه، تفطن إلى رائحة ذات نكهة غريبة تغزو منخريه، أحس إثرها بصداع، وثقل في دماغه، سرعان ما تراءت له أطياف، وتهيآت لم تخطر على باله من قبل، وفوجئ برفقائه يقهقهون، ثم يلجون في الضحك والقهقهة حتى البكاء، وقد تمايل بعضهم على بعض في ترنح شديد، وتعالت أصواتهم تجلجل بآي من الذكر الحكيم، وهتافات «عليها نحيا، وعليها نموت، و عليها نلقى الله»، تمتم مجاريا لهم، ثم تنبه إلى السائق الذي كان يدخن لفافة، وهو يتعمد نفث الدخان الكثيف داخل السيارة، التي كانت مقفلة الزجاج.

ما هذا الذي تدخن؟ سأله سعيد ودماغه يعج بالتهيآت، فرد عليه السائق، وقد طلعت النشوة إلى دماغه، نبات العرعار، أسمعت بنبات العرعار؟ فرد عليه، أتهزأ بى،

أعرف رائحة العرعار، فأنا ابن ريف، قل لي، ماهذا الذي كنت تدخن؟. لكن السائق لم يرد أن يجيبه، وظل واجما ساكتا عن الكلام، حتى أطفأ مشغل المحرك عند باب كبير لفيلا فخمة، حديثة البناء.

وجدوا عند المدخل شيخا يتمتع ببنية متينة، رغم تقدمه في السن، يتلفع عمامة صفراء، تبرق تحت الضوء الخافت، المنبعث من عمود الكهرباء المحاذى للفيلة فبدا ببرنوسه الأسود الملقى بإحكام على جبته الناصعة البياض كأنه في سن الثلاثين، أو أكثر بقليل.

رحب بهم وهو يحييهم في حرارة كبيرة، ثم أدخلهم ساحة الفيلا..كانت متقنة الصنع، جميلة، وأنيقة، ونظيفة جدا بها أحواض من مختلف النباتات ذات رائحة زكية، لكنها لم تكن مكتملة، كانت تنقصها اللمسات التي تضفي عادة على البنايات الحديثة ملمسا خاصا، وطابعا مميزا يجعلها فعلا في مصاف الفيلات الفخمة، المهم أنها لم تكن مكتملة ومع ذلك لا يلحظ عليها هذه الملاحظة إلا من عرفها من الداخل، لأنها من الخارج تبدو كغيرها من البنايات الأخرى.

قضوا شطرا من الليل، قدم لهم طعام فأكلوه بشهية، وشراب لذيذ، حلو المذاق ذو نكهة خاصة، وعندما انتصف الليل بقليل جاءهم الأمر بضرورة الالتحاق بالمجاهدين في أعالي الجبال، وزعت عليهم ألبسة خاصة، أحذية رياضية

خفيفة، وسراويل «جينز»، وسترات من الجلد الناعم، كلها صناعة مستوردة.. كانت إحدى الغرف العديدة التي تقع في الطابق الأرضي مليئة بأفخم وأشيك الألبسة من جميع الأصناف ومن كل المقاسات.

فرح «سعيد» بلباسه الجديد، كما سعد من كان معه بلباسهم الأنيق الراقي الجديد، قضوا ليلتهم في السير، كانت السماء صافية الأديم، تزدحم بالنجوم البعيدة المتناثرة، والبدر قد أطل بنوره الدافق فأضاء جنبات الطريق المترب غير المعبد الضيق وسط مسالك الغابات الكثيفة، الملتوي نحو الصعود، وكلما أدركوا نهاية الطريق، امتد في التواءات أخرى، حتى أدركهم الفجر عند مشارف بعض البيوت الطينية في قمة الجبل.

قال «جعفر العاصمي» : يمكننا الآن أن نستريح، وأشار إلى بيت طيني مسقف بالقرميد خال من السكان ولكنه مجهز بكل اللوازم من أغطية، وأفرشة، وأطعمة.

صلى بهم الفجر، ثم خلدوا إلى نوم عميق ولذيذ بعد شطر من الليل قضوه مشيا على الأقدام بعد أن ترجلوا من شاحنة صغيرة، توقفت عند منتصف الطريق الجبلي، ولم يصح «سعيد» إلا على وشوشة العصافير تغرد أغاريد رائعة، نهض من فراشه، فرك عينيه، ودلف من الباب الخشبي الموصد، فألفى جيشا من الخلق، في مجموعات صغيرة، بعضهم يعرفهم، وأغلبهم لم يرهم البتة من قبل.

فيهم من أطلق العنان للحيته حتى لامست صدره أو كادت، وفيهم من اعتنى بها فسواها تبعا لتقاسيم وجهه، وفيهم من غاب الشعر من وجهه، فبدا أمردا لم يحالفه الحظ في التفاخر بلحيته، لكن شعرهم كان طويلا ومضفورا بضفائر محكمة إلى الخلف بقطعة جوخ خضراء، كتب عليها «لا إله إلا الله» ...

نادى فيهم مناد بأن ثمة لقاء مع الأمير الوطني «مجيد الأفغاني» ونائبه «أبو طلحة الريحاني» يعقد بعد قليل، وماهي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تجمع خلق كبير في ساحة كبيرة وسط البيوت الطينية، كانت أشبه ما تكون بالنادي الذي يلتقي فيه السكان من فلاحين ومربي الماشية بعد الإفراغ من أعمالهم اليومية في الأماسي بعد يوم شاق من العمل المتواصل.

الساحة مهيأة ومفروشة بنبات الديس، والسرخس البري، واضح أنها جعلت للاجتماعات واللقاءات العامة، يبدو ذلك من خلال صيانتها والحرص على تنظيفها كلما جد جديد، فهي ساحة للقاء ومصلى في الوقت نفسه، تغشاها أغصان من البلوط المتشابكة والمتدلية حتى لتحسبها عريشا ضخما من شدة تماسك الأغصان المثبتة الفروع، حتى لاتدع مجالا لنفاذ أشعة الشمس وحرارتها.

غصت الساحة التي صارت تسمى «ساحة كراتشي» منذ اعتلاء «مجيد الأفغاني» سدة التنظيم في شقه العسكري، وصارت الجماعات تأتمر بأوامره.

نائبه «أبو طلحة الريحاني»، لم يكن من المقاتلين الأفغان، هو من سكان «جيجل» الأصليين، تخرج في جامعة قسنطينة، واشتغل بالسياسة، فانتخب رئيسا لإحدى بلديات الولاية، ولما طبق قرار إلغاء الانتخابات البرلمانية، ومنع حزبه من مواصلة نشاطه، وحل المجالس المنتخبة التي فاز فيها، قرر الدخول في السرية، مغتنما فرصة طرده من العمل بسبب تنظيمه للكثير من المسيرات، وإقامة تجمعات بغير ترخيص.

بدا «مجيد الأفغاني» هذا شخصا عاديا ليس له كرامات كما أشيع عنه، استنتج ذلك «سعيد» حين لاحظ بطنه المنتفخ، وحمرة قانية في عينيه، مع ظهور شبه كدمات على سحنته.

قيل له : إنه أراد قطف عسل النحل البري، في صخرة معلقة، فهاجمه النحل، ولم يتمكن من غايته، لكن ملامحه القاسية لم تخف على «سعيد»، فالشرر باد في عينيه المغشيتين باحمرار شديد.

كانت الفرصة مواتية للتعرف على هؤلاء الوافدين على الدشرة التي هجرها سكانها الأصليون إلى مداشر ومجمعات سكانية أخرى غير بعيدة عنها، قايضوهم عليها، مقابل

مساعدتهم على إقامة مساكن أخرى في الأماكن، التي يرغبون الإقامة فيها، فاتفق السكان على أن يسكنوا مع بعضهم البعض كما كانوا في السابق، ومن ثم نهضت دشرة أخرى، في شكل بيوت من الطين والحجارة تقي قيظ الحر، وقر الشتاء، على الرغم من أن الشتاء في تلك المناطق المطلة على البحر غير بارد برودة شديدة، أقيمت لهم على بعد ستة، أو سبعة أميال عن هذا المكان الذي أطلقوا عليه «معقل الأحرار»، كان فيهم البناءون المهرة، جلبوا خصيصا لممارسة هذه الصنعة، تساعدهم أيدي وسواعد الشباب، الذين تقتصر مهمتهم على صناعة الطوب بالقالب المخصص لذلك، وعرض قطعه للشمس حتى تجف، وكذا نقل الحجارة والأخشاب، لصنع الأوتاد، وغيرها.

سمع «سعيد» صهيل فرس قادم من الغابة المجاورة، التفتوا جميعا فإذا به «مجيد الأفغاني»، ونائبه «أبوطلحة الريحاني»، يتقدمهما فصيل يرتدي أفراده لباسا خاصا ومميزا، مفصلا تفصيلا موحدا، على جبين كل واحد منهم شريط أسود كتب عليه بخط أنيق «فصيلة الرحمان».

كان هؤلاء حرسه الخاص، يعاملون معاملة خاصة، لاتسري عليهم القوانين التي تطبق عادة على غيرهم في الفصائل والكتائب الأخرى، فالتعزير، والفلقة وأساليب جلب الماء وغيرها من العقوبات التي يمكن أن يتعرض لها كل فرد في التنظيم لا يخضعون لها هم، كانوا يستأثرون

بحظوة خاصة، ولا يجوز لأي فرد من أفراد التنظيم الآخرين التعرض للمساس بهم، أو الاحتجاج على أفعالهم مهما كانت جسامة الخطأ الذي يرتكبونه، فهم وحدهم الذين يسمح لهم بالاقتران بأكثر من امرأة، وإذا مل أحدهم المرأة التي بحوزته يمنحها لمن يشاء مقابل أعمال خاصة يقوم بتنفيذها بطريقة شجاعة، وبغير تردد، يشكلون حزام الحماية الدائم والمنتقل للأمير مجيد الأفغاني، فإذا وقعوا في كمين، أو باغتهم أفراد الجيش، أو أسلاك الأمن، هم من يدفعون أنفسهم للموت، مهمتهم حماية الأمير ولا عمل لهم غير هذا.

الأهالي الذين أبعدوا عن قلعة «الأحرار» سمح لهم بالبقاء في المنطقة التي يقولون عنها محررة، ذلك لوجود مصاهرة بينهم وبين بعض أفراد التنظيم، وعادة ما يكون المهر من الخراج الذي يجمعونه من الأهالي في مواسم جني المحصول، وقد يحصل أن يكون المهر مبلغا رمزيا يدفعه العريس إلى عروسه.

في البدء لم يكونوا بحاجة إلى مساعدة، لقد كانت الشاحنات تنقل إليهم كل ما يحتاجونه عبر الطرق المترية، ثم يستعينون بحملها على ظهور البغال والأحمرة إلى أعالي الجبال، حتى يدركوا «قلعة الأحرار».

ولما اشتد عليهم الخناق من قبل رجال الجيش الوطني الشعبي، وأسلاك الأمن المختلفة، التي حاصرتهم، ومنعت

عليهم تسريب المؤونة، التي كانت تأتيهم من مختلف القرى والمداشر التي كانوا يداهمونها، ويملون شروطهم على سكانها، انحسروا بهذه القلعة، وصاروا يعتمدون على أنفسهم في سد حاجياتهم المعيشية اليومية.

لم تدم طويلا خطبة «مجيد الأفغاني»، آية، أو آيتين من الذكر الحكيم، وبعض الأحاديث سردها على عجالة دون تحليل، دارت حول جزاء طاعة أولي الأمر، وكذا الإطناب في الفوز الذي يمكن أن يلقاه المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ثم ختم خطبته بضرورة الإخلاص في الجهاد، وعد كل عمل يقوم به الفرد داخل الجماعة في قلعة الأحرار مهما كان بسيطا، فهو من أشرف الأعمال وأجلها، إلى آخر ما قال.

كانت الخطبة على الرغم من كونها مقتضبة مملة للغاية، وتخلو من الإثارة والحماس اللذين كان يحرك بهما الجماهير حينما كان يوفد لإلقاء خطب في بعض المدن، وذلك في إطار الدور الذي كلف به نفسه وهو التعبئة والإشراف على عمليات التحضير والمتابعة للأفراد المراد جلبهم للتنظيم، أما الآن فقد صارت مهمته محصورة في الإشراف على العناصر التي تمثل دماغ التنظيم في مجالات صنع الأسلحة، أو فيما يتعلق بالاتصالات، وغير ذلك من الأعمال الاستراتيجية التي صار التنظيم يعتمد عليها أكثر من اعتماده على الأساليب القديمة المتمثلة

في المداهمات وغيرها، إذ العمليات الآن صارت توجه من بعد وبأساليب جد حديثة، باستخدام التكنولوجية المتاحة، يشاركه في تحمل هذا الإشراف نائبه «أبو طلحة الريحاني» الذي يثق فيه سكان جيجل وما جاورها ثقة عمياء، لكونه ابن المنطقة.

لما ختم «مجيد الأفغاني» خطبته شرع الخلق المتواجد في ساحة كراتشي يأتمر للأوامر التي كلف بها من قبل، كانت القوائم مضبوطة بالأسماء، فريق خص لجلب الماء من النهر الصغير المنحدر من الصخرة العظيمة القريبة من المعقل، على بعد ثلاثة أميال أو أكثر عبر مسالك صعبة ووعرة، وفريق خص للعناية بالغرس والتقليم والسقي والتنقية، إضافة إلى حراسة الجردة ليلا من الذئاب والخنازير وغيرها من الحيوانات التي عادة ما تهاجم المزارع ليلا، أو في غفلة من أصحابها، وفريق آخر للحفر، حيث يوزع أفراده إلى مجموعات صغيرة، ويقومون باعمال الحفر التي عادة ماتكون خنادق جديدة، أو أماكن متباعدة للراحة واللجوء في الأوقات الحرجة، وهي موزعة في مناطق عديدة تبعد عن بعضها بحوالي ستة أميال إلى سبعة، هذه المخابئ يخصص بعضها لتخزين المؤونة، أما بعضها الآخر والذي يحظى بالسرية والتكتم فيجعل لتخزين الأسلحة والذخيرة، وكلها متقدمة في أعماق الغابة، أما المخابئ الدقيقة الحساسة، فمعلقة في قمم صخرية ناتئة، ومشرفة بحيث

يصعب اكتشافها، أو التسلق إليها، والإفضاء إليها يكون عبر مغارات لا يعرفها إلا المكلفون بالحفر والإشراف على عمليات الإنجاز، حين تنتهي أشغال الحفر تحول الكتيبة التي كلفت بالإنجاز إلى مناطق أخرى في وسط أو في غرب البلاد.

الإحاطة بالسرية والتكتم لا تتعلق إلا بمخابئ الأسلحة والذخيرة، وبعض المخابئ المخصصة للأمراء فحسب، أما المخابئ الأخرى المجهزة للإقامة الظرفية، أو لطارئ من الطوارئ فيعرفها أغلب المسلحين، الذين يقومون بالعمليات المسلحة من حين إلى حين، ويعرفون بالطاعة العمياء لأمرائهم، والأمراء في الجبل مصنفون، ودرجات تصنيفهم حسب طاعتهم للأمير، والإقدام على العمليات مهما كانت دناءتها، المهم الطاعة، لابد من قلوب ميتة، و باردة لا وجود للمشاعر فيها، أما مرهفو الحس فتجدهم في الدرجات السفلى توكل إليهم أعمال الحفر والسقي، ولاينظر إليهم بعين الرضى والاحترام، أما الأثيرين عند الأمراء فهم الذين يقدمون على تنفيذ العمليات الدقيقة، أو توكل لهم مأموريات في أماكن بعيدة عن معقل الأحرار، تراهم يزودون بكمية من الحشيش ويمضون في حرارة شديدة كأنهم يؤدون عملا جليلا راضون غير ساخطين.

16

وجد « سعيد » نفسه ضمن الفصيل الأثير الذي يشرف عليه « أبوطلحة الريحاني » ، مهمة هذا الفصيل التقاط وجمع الأخبار الواردة عبر الانترنيت من أماكن مختلفة في أنحاء العالم، وتبادل الرسائل المشفرة، وكذا متابعة التصريحات الأمنية المعلنة من الأجهزة المختصة، وغربلتها ، وتمحيصها لاستخلاص الخطط التي يعمد إلى تنفيذها في الميدان، إضافة إلى بعض الاتصالات التي بدأت تتحرك سريا في مطلع هذا العام بين الأمراء بجميع أصنافهم وبعض القادة في المؤسسة العسكرية للجيش الوطني الشعبي..

أوكلت لسعيد مهمة تمحيص الأخبار التي يسهر على استقبالها وجمعها فريق يتكون من ثلاثة أفراد «سعيد» واحد منهم، زود بمسدس آلي من نوع «بريطا » لاستخدامه في الوقت المناسب.

لم يكلف كغيره بمأمورية معينة أو تنفيذ عملية من العمليات التي كانوا يقومون بها ، كان يسمع ببشاعتها ،

فيتألم في صمت خشية أن يكتشف أمره، فيصنف ضمن أصحاب العواطف الرقيقة، والمعروفين في أوساطهم بشديدي الإحساس، الآخرون كانوا حين ينجحون في تنفيذ العمليات التي كلفوا بها، يدرجون مباشرة في كتيبة من الكتائب التي لها اسم معين، ككتيبة القهر، وكتيبة الرعب، كتيبة القيامة، وكتيبة الذبح وغيرها من الكتائب التي توصف كلها بأنها دموية، لاتعرف الرحمة.

قادهم «أبوطلحة الريحاني» الذي كان يمتطي صهوة جواد عربي أصيل، قيل إنه هدية من الشيخ «صهيب المصهب»، أرسله إلى «جعفر الأفغاني» عبر الباخرة عن طريق مرسيليا باسم جمعية سباق الخيل للجزائر العاصمة، منها نقل إلى «جيجل» عبر شاحنة خيول خاصة، وكان يطلق عليه «المصهب» تيمنا بشيخه في بلاد الأفغان، ثم أهداه بدوره إلى نائبه «طلحة الريحاني».

أوغلوا في الغابة عبر مسالك شديدة الوعورة، لم تصلها أقدام سكان المداشر منذ اختفاء شيخ وابنيه، توغلوا في أعماق الغابة لجني فلين البلوط، فكان مصيرهم الذبح، عندها لم يجرؤ أحد من الأهالي على التقدم أكثر مما يسمح به داخل الغابة، فقد حددت لهم الحدود التي لايجب أن يتجاوزوها مهما عظمت الأسباب، والواقع أنهم جميعا كانوا يمتطون جيادا لكن ليست في جودة وأصالة جواد أميرهم أبي طلحة، ولأن «سعيد» غير متعود على ركوب الخيل،

فقد وجه أبوطلحة تعليمات بخصوص التأني في الأماكن الوعرة خوفا من مغبة سقوطه من على ظهر جواده.

أدركوا البيت، الذي يطلقون عليه «البيت المحفوظ» وسمي كذلك لكونه سري للغاية ليس ظاهرا للعيان، يصعب على من لايعرف سره اكتشافه، يقع تحت الأرض تحميه شجيرات صغيرة، وأعشاب السرخس البري المتلاحم حتى لا ترى بقعة صغيرة من التراب الذي يستر طبقته الأرضية، نزلوا من على ظهور جيادهم، وأكملوا مشوارا صغيرا مترجلين، فيما تكفل «أبوزراقة» بإبعاد الجياد إلى حوالي ثلاثة أميال في أعماق الغابة، سمي كذلك لزرقة عينيه، وهو أحد أبناء المنطقة الذين التحق نفر كبير منهم بالجبل منذ بداية التسعينيات.

لاحظ «أبوطلحة» اندهاش «سعيد»، ونظرته التي تحاول الاستطلاع لاكتشاف المخبأ، فربت على كتفه، وهو يبتسم :

– هذا بيت لا يعرفه إلا أنا، وجماعتي، وأنت واحد منهم، فمن اليوم و صاعدا عد نفسك من الأخيار الذين يؤثرون في التنظيم، واعلم أن الذين شاركوا في إنجازه، قد لقوا ربهم، فمنهم من حظي بالشهادة، ومنهم من وسوست له نفسه بإفشاء السر، فكان مصيره الذبح، والتي عادة ما تكون باختلاق سبب يسمح بمحاكمته محاكمة شرعية ثم القضاء عليه، والتكفل بدفنه.

فكن حذرا إذن، وعمق إخلاصك للجماعة، إننا هنا جميعا من أجل رفع الغبن على أمتنا أمة الإسلام.. ثم أردف قائلا :

- أترى هذه الغابات البكر، لم تطأها أقدام قبلنا قط، حتى العساكر الفرنسيين لم يصلوا إليها أيام ثورتنا المباركة، وثورتنا مباركة، أليس كذلك يا «سعيد»..لم يتركه يرد مكتفيا بالإشارة، وإيماءة صغيرة برأسه.

ولما فرغ من الأسر في أذن «سعيد»، خاطب الجميع هذه المرة، وهو يرسل ببصره إلى الغابات الكثيفة، المشكلة من أشجار الزان، والبلوط الفليني، والسرو قائلا:

- لا تجرؤ الطغمة العسكرية، ولاغيرها من أسلاك الأمن الذين يحاولون عبثا ملاحقتنا تعتب هذه الجبال، بغاباتها الكثيفة، إننا هنا في مأمن بعيدًا عن أي خطر، لذلك عليكم بالعمل، ولا تنشغلوا إلا به، حتى النساء المسبيات يأتين إليكن طائعات، لكن في أماكن أخرى نختارها لكم، وليس في هذا المخبأ، أروني إذن ما أنتم فاعلون.

كان يسترسل في الكلام، و«سعيد» ومن كان معه يترقبون السر الكامن خلف هذه التله المشكلة من شجيرات الخليج «العجرم»، والريحان، فيما كان «أبوطلحة» يحرك وتدا مغروسا بإحكام في جانب من جنبات التلة، وفجأة انكشف باب، هو جزء مشكل للتلة نفسها، ثم انفرج ببطء حتى

استوى على الآخر، فإذا به مدخل لمخبأ مصنوع بمهارة، وإتقان احترمت فيه كل مقاييس السرية.

ولج «أبوطلحة» المخبأ وتبعه أصحابه، فإذا به نفق أرضي يمتد إلى حوالى نصف ميل، بعرض ستة أمتار تدعمه جدران حجرية، لها أبواب تفضي إلى أقسام في شكل غرف جدرانها محجرة ومبلطة، وسقفها مسقف بأوتاد أشجار الزان، لكل غرفة من الغرف منفذ للهواء عبر أنبوب يمتد خارج التلة المكسوة بالأحراش الكثيفة، وكانت الغرفة على امتداد واحد فيما بقيت مسافة المتر تمتد على مسار المخبأ، و تشكل المعبر الرئيسي المؤدي في الأخير إلى منفذ للطوارئ.

فغر فم «سعيد» حين رأى بأم عينيه التجهيز الفاخر، الذي كان يشغل فضاء غرف النفق، كانت مؤثثة بكل اللوازم التي يحتاجونها للعمل.

الغرفة التي وضعت تحت تصرفه تشمل علاوة على التأثيث، تتوفر دون باقي الغرف على جهاز إعلام آلي محمول وآلة طباعة، ومستلزمات أخرى تستخدم للاتصال.

لقد كانت الإنارة كافية، ومتوفرة، بفضل مولد طاقة يشتغل بالنفط، وكانت البرقيات تستقبل من بلدان عديدة تشكل القاعد الخلفية للقيادة في الخارج.

حينها تبدد اللغز الذي كبل عقله في الأيام الأولى من تواجده في «معقل الأحرار»، عندما لاحظ مواكب من

الحمير والبغال محملة بأشياء كثيرة، تتجه نحو أعماق الغابة عبر منافذ تؤدي إلى القمم العالية، كانت العملية تتكرر عدة مرات في اليوم.

صار العمل في هذه البيوت الأرضية مريحا، أفضل من السابق، المعلومات التي تأتيه عبر البريد الإليكتروني مقتضبة، لكنها تحوي أخبارا في غاية الخطورة.

وصلته ليلة الأمس رسالة مشفرة، تفيد أن الإمدادات وصلت المكان المتفق عليه، قرأ الرسالة بتأن وراح يحل شفراتها، وهو يسترجع سنوات شبابه الذائبة في هذا المخبأ، تنبه إلى أنه أذاب قرابة الأربع سنوات في هذا المخبأ إلا من خرجات ينفذها من حين إلى حين، دون أن يشارك في مداهمات دموية، كما يفعل أفراد الكتائب الأخرى، ولم يشعر بهذا الوقت الهائل الذي أتلف من شبابه وعمره، إلا هذه الصبيحة، وهو يقلب الورقة التي سحبها بالآلة الطابعة بين يديه المرتعشتين، ويعيد قراءتها المرة تلو الأخرى.

صارت له بنت عمرها ثلاث سنوات، وصبي عمره سنه واحدة، لايراهما إلا في مناسبات متباعدة، كما لايرى أمهما نظرا للحراسة المشددة عليه، فالأمير يخشى أن يتعدى السر الذي يعرفه «سعيد»، فيعرض المتعاملين من الداخل ومن الخارج، الذين يزودون التنظيم بالأسلحة المتطورة، والمعلومات الدقيقة، التي استطاعوا بفضلها أن يصفوا بعض القيادات السياسية، والتشويش على الساسة

والحكام و التي تمكنوا بفضلها من عزل البلد عن الخارج عدة أعوام، لذلك لم يسمحوا له بالتحرك بحرية، ولو كانت المساحة أصلا التي يعيش في جنباتها لاتمكنه حتى من مخاطبة المخلوقات الغريبة، فما بالك بالبشر الذين لا يمكن أن يصلوا إلى تلك الأعالي المنعزلة عن العالم المتمدن.

17

زوجته كانت تمتهن التعليم، سبيت في إحدى المداهمات، ولما علم الأمير"مجيد الأفغاني" أنها على قدر من التعليم، وحفظ القرآن، اتخذها زوجة من الزوجات الكثيرات اللاتي كن تحت عصمته، أصلها بنت تاجر كبير من العاصمة كان يتعامل مع التنظيم في عملية الاستيراد والتصدير، كان في بداية التسعينيات تاجرا للمواد الغذائية، وهو من المتدينين المتشددين، مناصر متحمس للحزب المنحل حين كان يقود معظم المجالس المحلية في مختلف ولايات الوطن، ولما طلب يد ابنته، حين أغلق ملف الحزب ولم يعد مسموحا له بالممارسة السياسية العلنية، من قبل «جعفر العاصمي» الذي صار فيما بعد مطلوبا من قبل أسلاك الأمن، لم يمانع، فرت معه برضى والدها الحاج «أبو الذهب» الذي بارك لها الالتحاق بزوجها، ولما أعجبت «مجيد الأفغاني» طلقها زوجها الأول ليتزوجها، ثم صارت بعد ذلك عن طريق عملية التنازل زوجة لـ «سعيد»، ولما كان «سعيد» يقدر

أخلاقها ، وتدينها ، ورفضها للأسلوب المعمول به في أوساط التنظيم، بعد أن اكتشفت عن قرب مختلف الممارسات التي يمارسونها مع الأهالي، ومع كل من ينتسب للدولة بوظيفة أو مسؤولية، وعدم تفريقهم بين الشيخ والمرأة والصبي حين تصلهم أخبار تفيد أن عائلة أو أسرة فلان يتعامل أحد أبنائها مع الدولة، أو ما يسمونه النظام الجائر، بغير شفقة ولارحمة، ضاقت ذرعا بتلك الأساليب، وصارت تكتم رغبة شديدة للهرب والعودة إلى ذويها..

اكتشف «سعيد» ميلها ورغبتها في العودة إلى الحياة الطبيعية، حين آلت إليه بالزواج، وصار يشاركها الرغبة التي كانت تراوده بإلحاح كلما خلا إلى نفسه.

لما أطال القراءة في هذه البرقية الجديدة، رأى أن لابد من وضع حد لهذه الحياة، فاغتنم فرصة لقائه بزوجته وأولادها وصارحها بالخطة، فتجاوبت معه، ولقيت فكرته صدى كبيرا في قلبها ، وبخاصة أنها التقطت من الغابة مرة حين سمح لها بمعية مجموعة من النسوة الخروج في فسحة بسيطة، ورقة تتحدث عن قانون الرحمة، والمبادرة التي بادر بها النظام الحاكم برعاية رئيس الجمهورية، والتي تسمح للمغرر بهم الذين لم يقوموا بأعمال إجرامية في حق الدولة والشعب العودة إلى ذويهم والاستفادة من هذا القانون الذي يقف إلى جانب كل من يود العودة إلى حياته الطبيعية.

لقد أمسى التفكير في العودة إلى الحياة الطبيعية ديدن «سعيد» وشغله الشاغل، فصار يزود أميره «أبو طلحة الريحاني» بمعلومات خاطئة، متحملا بذلك النتائج الوخيمة التي يمكن أن تترتب عن هذا الفعل، ومع ذلك أقنع نفسه بضرورة فعل شيء، يمكن أن يكفر به عن الذنب الذي جعله يلتحق بهذا التنظيم، حقيقة لم يكن أمامه خيار، لأن الذين تكفلوا بتهريبه حاصروه، لم يتركوا له منفذا للتخلص بالهروب، أو الامتناع، ومع ذلك كان يعتبر مجرد الالتحاق بهؤلاء ذنب لايغتفر، وكان يقول في نفسه، لو كنت فعلا أقدر التضحيات التي ضحاها والدي، وعمي لما انصعت لنزوات هذه الشرذمة من الدمويين، فالموت واحد ولو تغيرت الأسباب، ولو كتب لي أن قتلت، كان أفضل لي من هذه الخيانة التي تنخر أضلاعي، وتجعلني فريسة للهواجس والندم...

اقتنع في قرارة نفسه، وبكل يقين، أن لابد من الهروب، زوجته «عائشة» بدورها ملت هذه الحياة التي تعد المرأة مجرد سبية، لاتصلح إلا للمضاجعة، وإنجاز الخدمات التي تسهل العيش للزوج، وكذا تربية الأولاد بغير رعاية صحية، فمنذ أن سمح لها بزيارة والدها الذي قدم إليها لغرض الاطلاع على أحوالها، ورتب لهما موعدا في أحد الفيلات بمدينة «جيجل». صارت الفكرة لاتفارق ذهنها، كما استطاعت أن تقنع والدها الذي صدم بدوره من شراسة

الأعمال الوحشية التي يرتكبها هؤلاء في حق المواطنين الأبرياء، بغير شفقة، ولا إنسانية، الأمر الذي مهد لهما طريقة غاية في الذكاء للهروب.

كانت الفرصة مواتية هذه المرة، رتب «الحاج بو الذهب» لابنته وسيلة ذكية لتهريبها رفقة ولديها وزوجها «سعيد»، اتفق مع أحد معارفه الذين يمتلكون مجموعة من البواخر المتوسطة الحجم، والتي يرسو بعضها في ميناء «جنجن» لشحن مادة الفلين إلى الجزائر العاصمة.

الوقت شهر رمضان، وفي هذا الشهر عادة ما تكثف الجماعات المسلحة عملياتها، فيخف التواجد المكثف لأفراد الكتائب التي تنتشر عادة في الغابة، حيث يكلف معظم أفرادها بالالتحاق بأهم المدن لتنفيذ عملياتهم الدنيئة، ولما كان سعيد وزوجته يعرفان هذه الحقيقة، فكرا في طريقة تمكنهما وولديهما من الانفلات من قبضة هذه الشرذمة.

طلبت «عائشة» من أميرتها «لالا الجوهر» ضرورة لقاء والدها، الذي اشتاقت إليه كثيرا، ولأن «لالا الجوهر» لها مكانتها الخاصة في التنظيم، فقد قامت بالمبادرة دون استشارة «مجيد الأفغاني» الذي كان متواجدا في مهمة خارج المعقل.

أمرت أحد المسلحين بمرافقتها إلى مدينة «العوانة»، وطلبت منه أن يتركها رفقة والدها، على أن يعود إليها صبيحة اليوم التالي، وكان من الطبيعي أن تأخذ ولديها

معها..وفي الوقت ذاته كان «سعيد» قد طلب من «أميره الأول» «مجيد الأفغاني»، قبل أن يغادر إلى «قسنطينة» للإشراف على عملية دبرت للإيقاع بدورية، مهمتها مراقبة حركة السير ليلا في مدخل المدينة الشرقي السماح له بالإفطار في مدينة «العوانة» على أن يقضي الليل هناك، ويعود في صبيحة اليوم الموالي.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا، اغتنم الحاج هذا الوقت الذي تخف فيه حركة السير، ويمتنع الناس فيه عن التجوال نظرا للوضع الذي يعيشونه منذ خمس سنوات، فعلى الرغم من تواجد قوات الجيش الوطني الشعبي في المنطقة، فإن عيون هذه العصابات، التي صارت فرقا وشيعا، كل فرقة لها أسلوبها، تقترب جميعا في الأعمال الوحشية مع تفاوت قليل في الأسلوب والطريقة المنتهجة، لاتغيب.

شغل محرك السيارة داخل مرأب الفيلا التي جعلت تحت تصرفه من قبل أحد المتعاونين مع التنظيم المسلح التابع للحزب المنحل، الذي يسمى الجيش الإسلامي للإنقاذ، صرصر «سعيد» باب المرأب الحديدي بهدوء، وسارت السيارة بحذر شديد نحو الميناء.

اقترح «سعيد» وبمباركة صهره الحاج أن لايقدم نفسه وزوجته مع الأبناء إلى القوات المتواجدة بالعوانة، ولا حتى بمدينة «جيجل»، كان يريد أن يبلغ المعلومات التي بحوزته إلى أعلى هيأة في القيادة العامة للجيش، لأن المعلومات

المتوفرة لديه، والتي جمعها من مهنته التي شغلها بالغابة، على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة.

توقفت السيارة على رصيف الميناء في حدود منتصف الليل، السفينة الصغيرة بانتظارهم جاهزة للانطلاق، وما هي إلا دقائق حتى أبحرت السفينة في أعالي البحر، بعد تناول السحور، صعد إلى سطح السفينة فيما خلدت زوجته وأولاده وصهره في نوم عميق، رأى السماء كما لم يرها من قبل، كانت النجوم هذه المرة زاهية تبرق من بعيد، والسماء صافية الأديم، ملأ رئتيه بنسمات البحر، وراح يعيد شريط تلك الأيام البائسة من حياته.

حياته في المخبأ كانت جحيما لا يطاق، وبخاصة عندما يتلقى تلك الرسائل المشفرة التي تروي باقتضاب التواطؤ العميق الذي تمارسه بعض القيادات في أجهزة أمن بعض الدول المجاورة، كانت المضامين التي تحملها تلك الرسائل تشير إلى نوعية الإمدادات التي تخبر التنظيم بمكان وزمان وصولها في عرض البحر، فتارة تقدم من «مرسيليا» للتمويه، وتارة أخرى تأتي مباشرة عن طريق البحر، لتصل إلى الجنوب الغربي من جهة «اسبانيا»، وأحيانا أخرى تفيد تلك الرسائل بالتقدم الذي أحرزته تلك الأجهزة فى نقل الأشخاص إلى دول أجنبية : ألمانيا، فرنسا، إسبانيا، بريطانيا، وإلى غيرها من الدول العديدة، لعقد الصفقات، وتعزيز القواعد الخلفية للتنظيم، لقد كانت تلك القيادات

التي تهرب إلى تلك البلدان على درجة كبيرة من الأهمية في حياة التنظيم، إذ جلهم من القيادات الحزبية أيام كانت الجبهة تمارس نشاطها، كانوا من الإطارات التي تشبعت بمبادئ القيم الدينية الوافدة من بلاد الأفغان، وباكستان، كانوا يؤمنون بضرورة قيام خلافة إسلامية تحكم العالم العربي من الشرق إلى الغرب، ولأنهم يحظون باللجوء السياسي في بعض البلدان الأرويبة كانوا لا يجرؤون على ضرب مصالحها الحيوية في الداخل أو في الخارج، حتى سقط حكم طالبان في بلاد الأفغان حينها صاروا قليلي الحركة والمناورة..

أحداث 11 سبتمبر لم تترك لهم مجالا كبيرا للتحرك، فقد صاروا لا يتمتعون بالامتيازات التي كانوا يحظون بها، وصارت الأنظمة التي وفرت لهم اللجوء والحماية تضيق بهم ذرعا، فصاروا عرضة للمداهمات والمحاكمات، وفتر نشاطهم في المساجد، إذ لم تعد الجمعيات الخيرية التي أسسوها تجني الأموال الطائلة كسابق عهدها، لكن ومع ذلك فقد أسسوا خلايا لضرب السيادة الجزائرية في نشر الأكاذيب والدجل حول ما كانوا يسمونه انتهاكات حقوق الإنسان في الجزائر فوجدت بعض تلك الجمعيات التي تنشط في هذا المجال مقابل مكافآت مالية خيالية تتقاضاها من جهات نافذة في العالم سبيلا إلى زرع الشك والبلبلة في الأوساط العالمية، فاختلقوا مقولة «من يقتل

في الجزائر؟» وعظمت تلك المسألة بالتحاق بعض الأفراد الذين كانت سيرتهم سيئة في المؤسسة العسكرية لتوسيع تلك الدائرة التي أساءت إلى سمعة البلد، وحاولت عزلها عن مواكبة التطور والتعاون الذي تعرفه الحركة الدولية..

وعندما أحس بالبرد يتوغل إلى مفاصله، وثمة ضوء يكشف الغبش الذي شرع يندحر من على زرقة البحر، هبط السلم، واندس تحت الغطاء مستسلما للرقاد.

لم يصح إلا على وشوشة زوجته «عائشة» وهي تطالعه بملامحها المتعبة، أن وصلنا مياه العاصمة.

استقلوا السيارة العسكرية التي كانت في انتظارهم في الميناء، ومنه توجهوا إلى مقر قيادة الأركان.

وجدوا رعاية منقطعة النظير واحتراما كبيرا وسط الضباط الذين أحالوهم إلى قيادة الاستخبارات العامة، استمع الضابط السامي إلى الأخبار التي جاء بها «سعيد» بكل جوارحه، وقيدت في محضر .

ألف «سعيد» هذه الحياة الجديدة ألفة عظيمة، أماط اللثام عن الكثير من الحقائق، والملابسات، وتمكنت قوات وأسلاك الأمن من القبض على كل المتواطئين المندسين الذين خانوا البلاد.

وصارت مساعيه ناجحة في إقناع الذين مكثوا في الجبال، ولم يجدو الوسيلة التي تخرجهم من تلك الورطة، فصار يستقبلهم في نقاط عديدة، مع فرق الجيش المختصة،

التي هيأت لهم كل الظروف الملائمة للاستقبال في مناطق متقدمة في الشرق وفي الغرب.

18

مسح ببصره الجموع الغفيرة المصطفة في طابور كبير أمام مكتب الاقتراع، فداخله شعور بالغبطة والأمان، فقد هذا الإحساس الجميل منذ فترة غاب فيها عن ألق الحياة، ودفقة العواطف الجياشة بالحب، ابتسم وهو يرنو بناظريه المليئين بالحنان لزوجته، فبادلته «عائشة» بسمة طويلة مفعمة بالرضى والاطمئنان، تعطلت لغة الكلام، وامتدت مساحة هائلة من البوح الآخر، الذي يقول الكثير ولا يقول...

تفرقا لأداء واجبهما الانتخابي عند مركز الاقتراع، حين دخل المخدع السري للاقتراع شعر بزهو كبير، يداخل نفسه، وثمة فرحة عارمة بالنصر تملأ كيانه ووجدانه، تأمل الورقة الزرقاء، ثم قبلها بحنان وهو يقول في سره لأجلك نحيا، ولأجلك نموت ولأجلك نلقى الله ياجزائرنا الحبيبة، ثم مرق من المخدع وترك المظروف ينزلق في الصندوق، الفرحة تكاد تنسيه طريقه إلى الخروج للقاء زوجته التي كانت بالكاد

تحرك الخطى، فنظر إلى بطنها المنتفخ، وهو يقول ترى ماذا نسميه، فقالت له والبسمة تغالبها في غنج ودلال :

- وإن كانت بنتا ، قال لها نسميها :

- وئام، فقاطعته:

- بل صليحة، فجاراها في دلالها :

- ولم لا نسميها سليمة، فقالت له :

- إن كنت تصر فلنختزل هذه الأسماء في اسم واحد، فأومأ لها بالرضى، وسارا معا يحدوهما أمل غامر.

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م. مطبعة الشهاب
ع. ڤرفي - باتنة